المدينة النبوية في سيرة عزيز ضياء
١٣٣٢ – ١٣٥٢ هـ / ١٩١٤ – ١٩٣٣ م

د.عواطف بنت محمد يوسف نواب
أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية– جامعة أم القرى

ملخص البحث:

تنوعت المصادر التاريخية تنوعاً كبيراً ، وأعتمد المؤرخون فيما أعتمدوا في كتاباتهم التاريخية على تلك المصادر ومنها السير الذاتية . وهي بلا شك تسد ثغرات غابت على المؤرخين بحكم معاصرة صاحب السيرة للحدث ، فهو شاهد عيانٍ على أحداثها . ومن هذه السير ؛ سيرة عزيز ضياء الذي عاصر جزءً من نهاية تاريخ الدولة العثمانية وكامل العهد الهاشمي في المدينة النبوية في مقتبل حياته ، والعهد السعودي بعد ذلك .

ففي سيرة عزيز ضياء إضافات أغفلها المؤرخون وصحح أموراً أخرى عايشها كانت مسلمات تداولها الباحثون؛ وأثبتت المقارنة بالمصادر المعاصرة واللاحقة صدق ما ورد في سيرته . والجديد والمفيد في سيرته تطرقه للحديث عن وجهات نظر مختلفة شملت الكبار والصغار والنساء والرجال وموقفهم من الأحداث التي مروا بها ؛ كما ملئت سيرته بالحديث عن الحياة الاجتماعية وخاصة مجتمع النساء الذي شاهده بحكم إلتصاقه بوالدته في صغره في تلك الفترة . كما حوت سيرته مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية بالمدينة النبوية والتي كانت سائدة في تلك الفترة ؛ لذا يمكننا أن نعد سيرته من ضمن المصادر التاريخية للمدينة النبوية في تلك الفترة . فقد أعتمد في سرده على خلفية تاريخية زماناً ومكاناً ؛ لذا شكلت سيرته جزءً من تاريخ المدينة النبوية.

Research Summary

Almadina Alnabawiyya in the Autobiography of Aziz Dia

1332 – 1352 Hijri / 1914 – 1933 AD

The historical resources have diversified immensely, and the scholars have relied on those resources in their historical writing which in include autobiographies. Autobiographies without a doubt fill in the gaps that historians have missed given that the autobiographies document historic events. Since the person is written about is a first case witness to these events. One of those autobiographies is the autobiography of Aziz Dia who lived during the end of the history of the Ottoman Empire, and the entire Hashemite era in Almadina Alnabawiyya, then the Saudi era afterwards.

In the autobiography of Aziz Dia there are additions that are missed by historians where he has corrected many topics they argued over. Historic comparisons of both old and new resources have verified the authenticity of what is written in his biography. What is new and insightful in his autobiography are his opinions and discussions regarding differing points of view of the old and young, men and women of society and their stances towards what they go through in life during that period. His autobiography is full of discussions regarding social life, especially the social life of women which he observed plentifully given his attachment to his mother during his youth in that period. Also his autobiography contained different and prevalent social, political, economic, and intellectual aspects of Almadina Alnabawiyya. So, we can include his autobiography in the historical sources for Almadina Alnabawiyya during that period. Given that Aziz Dia has relied on a historical background in terms of time and place in his writing and so his autobiography has formed a piece of the history of Almadina Alnabawiyya.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، مُعلمنا الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد ..

إن المصادر التاريخية كثيرة ومتنوعة، وكل نوعٍ منها يخدم ناحية من نواحي التاريخ، ومن هذه المصادر السير الذاتية؛ فالسيرة الذاتية تسجيل لما مر به كاتبها من فرحٍ وكدر، فكاتب السيرة يجعل القارئ يعيش معه أحداثها؛ فهي رواية لشخصيات حقيقية، وزمانها ومكانها محددين، ووقائعها حقائق تاريخية. لذا كان للسير الذاتية صلة بالتاريخ لأنهما يشتركان في تسجيل الأحداث والمواقف. وخير مثال على ذلك سيرة أسامة بن منقذ[١]، التي أرتقت قيمتها الثقافية والتاريخية، لما سطره فيها من خبراته الحربية والسياسية، مع سرد تاريخي لأحوال تلك الفترة في قالب أدبي بديع[٢].

---

[١] – أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ بن نصر الكناني، أبو المظفر، من أكابر أمراء بني منقذ أصحاب قلعة شيزر بقرب حماة . كان عالمًا أديبًا فارسًا ، مقرباً من الملوك والسلاطين . له العديد من المؤلفات في الأدب والتاريخ ، ولد بشيزر عام (٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م)، سكن دمشق، قاد العديد من الحملات ضد الصليبيين في فلسطين. عاد بعدها إلى دمشق وأنتقل إلى حصن كيفي بعد استدعاء السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي له ؛ وقد ناهز الثمانين من عمره . مات بدمشق عام (٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م). الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت– لبنان، دار العلم للملايين، ط ٧ ، ١٩٨٦ م ، ج ٧ ، ص ٢٩١.

[٢] – للمزيد انظر ابن منقذ ، أسامة مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) . طبعة جديدة على النسخة التي حررها د / فليب حتي ، بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، منشورات محمد علي بيضون ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م . ص ٤ ، ٢٠ ، ٢٤ . وما بعدها كامل الكتاب.

وبين أيدينا اليوم سيرة ذاتيه لعزيز ضياء أديب سعودي عاصر جزءً من الفترة العثمانية وكامل الفترة الهاشمية في المدينة النبوية في مقتبل حياته، والعهد السعودي بعد ذلك؛ فقد اجتمعت في سيرته السرد لأهم الأحداث التي عاينها مع تصويرها بأدق تفاصيلها، فجمع في سيرته الأدب والتاريخ الذي عاصره ، وتطرق لنواحي سياسية واجتماعية عاشها في المدينة النبوية. وبعد الإطلاع على هذه السيرة رأيت أن استعين بالله تعالى واختارها كموضوعًا لبحثي هذا – فسيرة عزيز ضياء أخرجت لنا تاريخ المدينة النبوية في تلك الفترة بمختلف وجهات نظر أهلها رجالاً ونساءً وأطفالاً وموقفهم من أحداثها. فالسير بذلك إحدى قنوات المصادر التاريخية وعليه ستكون سيرة عزيز ضياء مدار البحث وإخراج بعض ما جاء فيها، وتوظيفها في استخراج المادة التاريخية اللازمة لدراسة معلومات غزيرة.

إن سيرة عزيز ضياء ضمت مواد تاريخية جمة عن الفترة التي تحدث عنها في سيرته المعنونة بـ (حياتي مع الجوع والحب والحرب). وبعد الإطلاع عليها وجد بها معلومات غزيرة عن تاريخ المدينة النبوية تنساب في ثنايا سيرته؛ وسنقتصر على ما ورد فيها من أحداث سياسيةٍ واقتصادية ومقارنتها ببعض ما ورد في الكتب التاريخية، سواء كانت المعاصرة أو السابقة أو اللاحقة ويتم التركيز على الناحية الاجتماعية في سيرته أثناء وجوده بالمدينة النبوية التي كانت طاغية ومفصلة؛ بل قل نظيرها في الكتب التاريخية التي تناولت هذه الناحية. فقد تحدث عن مجتمع النساء وعاداتهن بحكم التصاقه بأمه في تلك الفترة المبكرة من حياته، كما تطرق لألعاب الصبيان، وعلاقات الجيران، ونوع الخدم، والعادات السائدة، والتعليم، وبعض اللغات والجنسيات الموجودة بالمدينة النبوية وغير ذلك مما سيوضح في ثنايا البحث. الذي سيقتصر على ما جاء في السيرة. وعُنون البحث بـ (المدينة النبوية في سيرة عزيز ضياء ١٣٣٢-١٣٥٢هـ /١٩١٤- ١٩٣٣م).

وسيقسم البحث إلى:

تمهيد : يشمل الأوضاع السياسية السائدة في بداية القرن ١٤ هـ / ٢٠ م .

المحـــور الأول: ترجمة الأديب المؤلف عزيز ضياء .

المحـور الثـاني: الناحية السياسية والأمنية والاقتصادية بالمدينة النبوية كما وردت في سيرة عزيز ضياء .

المحور الثالث: الناحية الاجتماعية بالمدينة النبوية كما وردت في سيرة عزيز ضياء.

الخاتمـــة: وتحوي أهم نتائج البحث.

المصادر والمراجع... التمهيد:

الأوضاع السياسية السائدة في بداية القرن ١٤ هـ / ٢٠ م بالمدينة النبوية:

لم تكن المدينة النبوية بمعزل عن الأحداث السياسية التي عاشها العالم في ذلك الوقت، فقد نالت نصيبها من تأثيرات تلك الأحداث، بل تصارعت القوى الناهضة في ذلك الوقت على السيطرة عليها وضمها إلى سلطانها . فالمدينة النبوية منذ أن دخلت تحت حكم الدولة العثمانية مع غيرها من مدن الحجاز عام (٩٢٣ هـ /١٥١٧ م) هنأت في ظلها، ولم يكن يعكر صفوها أحياناً إلا استبداد بعض أغوات الحرم النبوي بداية الأمر، وبعض باشاواتها بعد ذلك[٣]. وأحيانًا أخرى غارات الأعراب المحيطين بها عندما يمتنع أمراء الحج عن إعطائهم مخصصاتهم المالية[٤]؛ ولا يلبث أن يعود الهدوء وينصرف الناس لمواصلة حياتهم القائمة على الزراعة والتجارة والقيام بخدمة المسجد النبوي[٥].

---

[٣] – المدني، جعفر بن الخطيب السيد حسين يحي هاشم الحسيني (ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م): الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة ، مخطوط بجامعة المدينة المنورة ، ورقة ١٥ / ب ؛ بدر، عبد الباسط : التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، المدينة المنورة ، ط١، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م . ج ٣ ، ص ٥ – ١٩ .

[٤] – العصامي ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م): سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، المطبعة السلفية، د . ت ، ج ٤ ، ص ٥١١ .

[٥] – العياشي، أبوسالم عبد الله بن محمد (ت ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩ م) : الرحلة العياشية ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق محمد أمحزون ، الكويت ، دار الأرقم للنشر والتوزيع ، ط ١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م . ص ٢٢٣ ، ٢٢٥.

أفاقت المدينة النبوية في منتصف العقد الثاني من القرن (١٤ هـ /٢٠ م) على مستجداتِ حضارية لم تألفها قبلاً، وهي اتصالها المباشر بعاصمة الدولة العثمانية بواسطة الإتصال اللاسلكي ؛ ووصول سكة الحديد المار بدمشق والمنتهي بها[٦] . واستمر هذا الخط يخدم أهل المدينة النبوية نحو تسع سنوات حظوا خلالها بالإزدهار والرواج التجاري[٧] .

ووقعت أحداث داخلية أقلقت سكان المدينة النبوية، وكأنها مقدمة لما سوف يعانونه في الأيام القادمة من قيام الحرب العالمية الأولى، وما صاحب ذلك من تهجير لهم، فمن هذه الأحداث الداخلية تعيين علي باشا مرمحين[٨] محافظاً عليها عام (١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦م)، والذي عُرف بغطرسته وتكبره واستبداده، فأهان أهل المدينة النبوية وفرض عليهم ضرائب ورسوم كثيرة ، فثار عليه أهلها، وطلبوا من السلطان عبد الحميد الثاني[٩] إقالته، فعزله وعين بدلاً عنه حسن حسني باشا[١٠] الذي لم يلبث أن عُزل بعد إرسال العديد من الشكاوي ضده؛ فعين خلفاً له شيخ الحرم النبوي عثمان فريد باشا[١١] إلى جانب وظيفته شيخاً للحرم النبوي، وفي فترته نشب خلاف

---

[٦] – بدر : التاريخ الشامل ، ج ٣ ، ص ٤ ، ١١ .

[٧] – حافظ ، علي : فصول من تاريخ المدينة المنورة ، جدة ، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ . ص ٣٩ .

[٨] – علي باشا مرمحين: عُين محافظاً على المدينة النبوية عام (١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م) كان متكبراً مستبداً ، أهان أهلها وفرض عليهم الضرائب والرسوم، فثاروا عليه وطردوه منها بعد عزله عنها. حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ص ٤٠ – ٤١ ؛ بدر: التاريخ الشامل، ج ٣، ص ٧ – ٩ .

[٩] – السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان عبد المجيد ، تولى السلطنة عام (١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م) وكان عازماً على إصلاح أحوال الدولة العثمانية ، وصف بالدكتاتورية ، حدث في عهده حرب الروس وحادثة سلانيك وحرب الجبل الأسود والصرب، خلع من السلطنة عام (١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م) بمؤامرة بعد رفضه السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين. فريد، محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت، دار الجيل، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م. ص ٣٢٦ – ٤١٠. باختصار.

[١٠] – حسن حسني باشا : أحد المحافظين الذين عُينوا بالمدينة النبوية خلفًا لمرمحين. ولكنه لم يلبث أن ثار عليه أهلها فعزل، حافظ : فصول من تاريخ المدينة، ص ٤١؛ بدر: التاريخ الشامل، ج ٣، ص ١٠.

[١١] – عثمان فريد باشا: كان شيخًا للحرم النبوي، والغريب أنه كان أمياً، وبالرغم من ذلك عينته الحكومة العثمانية خلفاً لحسن حسني باشا ، ولم يرض عنه أهل المدينة النبوية وثاروا ضده، وانتهت ثورتهم بحبس زعماء الثوار،

بين عددٍ من عوائل المدينة النبوية حول تركة شخصين ، وتطور الخلاف إلى حد إطلاق الإشاعات بنية المحافظ شيخ الحرم على قتل عددٍ من أعيان المدينة النبوية ، مما أدى إلى ثورتهم مطالبين بعزله، وأنقسم الأهالي بين مدافع عنه وبين مطالب بعزله؛ وانتهى الأمر بالقبض على عددٍ كبيرٍ من أعيانهم وسجنهم في الطائف، ولم يفرج عنهم إلا بعد فترة من الزمن[١٢] .

وتمضي الأيام بعد هذه الحادثة والمدينة النبوية تعيش رخاءً مع امتزاج أهلها بمن حولهم من القبائل، وأمتد عمرانها بعد تدفق المهاجرين المحملين بالأموال لاستخدامها في أعمال التجارة وإقامة المباني والاهتمام بالزراعة فعم الخير على الناس[١٣]؛ وتوج رخاء المدينة النبوية في عام (١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م) بوصول خط السكة الحديد من دمشق إليها؛ وبهذا ارتبطت بالعاصمة العثمانية، واستمر هذا الخط في أداء مهمة نقل الحجاج والزوار؛ فزاد ازدهارها اقتصاديًا بتدفق الواردات وتصدير الفائض؛ ولكن لم يقَدر لهذا المشروع العظيم أن يستمر طويلاً إذ اندلعت الثورة العربية (١٣٣٥ هـ / ١٩١٦ م) فُدمر كثير من أجزاء هذا الخط[١٤]. وبدماره حُرمت المدينة النبوية والمنطقة كلها من ذلك الرواج والازدهار.

قيام الثورة العربية وتأثيرها على المدينة النبوية:

تسارعت الأحداث بعد إنشاء خط سكة حديد الحجاز الواصل للمدينة النبوية؛ إذ لم يهنأ أهلها كثيراً بازدهارها ونشبت الحرب العالمية الأولى– العظمى– عام (١٣٣٣

واستمر هو حاكماً إلى عام (١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م) وعزل ثم مرض وقطعت رجليه وتوفى بعدها. حافظ: فصول من تاريخ المدينة ، ص ٤١ – ٤٥؛ بدر: التاريخ الشامل ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

[١٢] – حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ٤٠ – ٤٤ ؛ بدر : التاريخ الشامل ، ج ٣ ، ص ٧ – ٢٤ .

[١٣] – زيدان ، محمد حسين : الأعمال الكاملة – ذكريات العهود الثلاثة ، جدة ، الناشر عبدالمقصود خوجه ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م . ج ٤ ، ص ١١٢ – ١١٤ ، ١٢٣.

[١٤] – حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ٣٨ – ٣٩ ؛ بدر : التاريخ الشامل ، ج ٣ ، ص ٢٨ ، ٣٣ – ٣٥ .

هـ / ١٩١٤ م) وأنحاز العرب إلى جانب الإنجليز، وعلى رأسهم شريف مكة المشرفة الشريف حسين بن علي[١٥]؛ وقام بالثورة على الدولة العثمانية مؤملاً إقامة مملكة للعرب هو ملكها[١٦]. ولما كانت المدينة النبوية خارج سيطرته لأن الحاكم عليها في ذلك الوقت فخري باشا [١٧]، فهي متصرفية عثمانية تتبع مباشرة العاصمة العثمانية [١٨]؛ لذا دافع عنها دفاعًا مستميتًا حتى لا تقع في يد الشريف حسين وأبناءه، ودخلت بذلك المدينة النبوية وأهلها في معاناة شديدة من الحصار الذي ضرب عليها من قبل قوات الشريف حسين، الأمر الذي أدى بفخري باشا إلى إصدار أمره بترحيل أهلها حتى تكون ثكنة عسكرية يستطيع بعدها الدفاع عنها بدون حمل هم إطعام أهلها، فأحكم تحصين المدينة النبوية وشحنها بالسلاح والمؤن التي تكفي جنده إذا ما طال الحصار، الذي استمر من عام (١٣٣٥ هـ / ١٩١٦ م – ١٣٣٧ هـ / ١٩١٩ م)

---

[١٥] – الشريف الحسين بن علي: من أحفاد أبي نمي بن بركات ، أول من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الحكم العثماني . تولى أمرة مكة المشرفة عام (١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م). قام بثورة ضد الحكم العثماني بالحجاز عام (١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م)، بعد اتفاقه مع الإنجليزي وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تنكر له الإنجليز ، وقد توترت العلاقة بينه وبين ابن سعود مما أدى إلى نهاية حكمه ونفيه إلى العقبة ومن ثم إلى قبرص ، مات عام (١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م). الزركلي: الأعلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

[١٦] – عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي، ط ٨ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م . ص ٢٨٩ ، ٣٠٠ – ٣٠٤ .

[١٧] – فخري باشا: عُين من قبل الحكومة العثمانية قائدًا عامًا بالمدينة النبوية للدفاع عنها؛ وقد دافع عنها دفاعًا مستميتًا، إذ من صفاته الشخصية أنه كان صلبًا وقائداً عسكريًا فذًا، أولى عنايته بالمدينة النبوية ومن ضمن أعماله بها: جعلها مركزاً عسكرياً متكاملاً ، أسس شبكة اتصال هاتفي داخلها، شق طريق العينية من المناخة للوصول إلى المسجد النبوي. وإن كان يحسب عليه تفريغ المدينة النبوية من سكانها وغيرها من الأخطاء. وقاوم حصار المدينة النبوية مدة سنتين وسبعة أشهر سقطت بعدها في يد الهاشميين ورحل هو بعدها إلى اسطنبول. بدر: التاريخ الشامل، ج ٣ ، ص ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٢ – ٨٣ .

[١٨] – المرجع السابق والجزء ، ص ٣٧ .

سلمت بعدها لجيش الحسين المحاصر لها بعد حصار دام سنتين وسبعة أشهر[١٩]. واندمجت بعد التسليم في نسيج المملكة العربية الهاشمية إلى أن دخلت عام (١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) تحت حكم الملك عبد العزيز آل سعود بعد أن تم حصارها من قبل القوات السعودية وسلمت للأمير محمد بن عبد العزيز[٢٠] إذ عانوا أهل المدينة النبوية في تلك الفترة من نقصٍ شديد في المواد الغذائية أدى إلى تضرر الأهالي جراء ذلك[٢١]. وفي هذه الفترة العصيبة بدأت سيرة عزيز ضياء الذي تفتحت عينه في المدينة النبوية والحكم فيها للعثمانيين ، وكانت والدته تنعش ذاكرته دائماً بما مر به من أحداث حتى لا ينساها، فسجلها بعد ذلك بدقة .

المحور الأول : **ترجمة الأديب عزيز ضياء** :

عبد العزيز – عزيز– بن زاهد بن سلطان بن مراد؛ عُرف بلقب ضياء نسبة إلى زوج والدته ضياء بك، ولد بالمدينة النبوية في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٣٢ هـ/ الموافق ٢٢ يناير ١٩١٤ م). في زقاق القُفل من حي الساحة. بدأ دراسته في كُتاب الشيخ محمد بن سالم رحمه الله [٢٢]. ثم انتقل لمتابعة دراسته في المدرسة الراقية الهاشمية،

---

[١٩] – المرجع السابق والجزء، ص ٤٩ – ٦٥ ، ٨٣ ؛ العثيمين، د / عبد الله الصالح: تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، مكتبة العبيكان، ط ٢ ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م . ج٢، ص ١٥٥ – ١٥٦.

[٢٠] – محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن : ولد عام (١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م) وتوفى عام (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م) تسلم المدينة النبوية بعد حصارها ويعتبر أول أمير لها في العهد السعودي ، ولكنه لم يمكث بها بل أناب عنه الأمير إبراهيم السالم السبهان. البردعي ، الشريف أحمد بن محمد صالح الحسيني : المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي ، ط ١ ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م . د . م . ص ١٤٠ – ١٤١ .

[٢١] – العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ١٩٩.

[٢٢] – العريف محمد بن سالم: صاحب كُتاب وشيخه وعريفه، إلى جانب عريف آخر يدعى عبد الحميد هيكل؛ يعرف الكَتاب سابقاً بكُتاب إبراهيم المطرودي، وهو أحد أشهر الكتاتيب المتصلة بالمسجد النبوي بالقرب من باب المجيدي، وللعريف مساعدٌ يسمى محمد سعيد سندي، وخصص الكُتاب لفك الحروف وحفظ القرآن الكريم. مرشد، أحمد أمين صالح : طيبة وذكريات الأحبة، مراجعة وتقديم عبيد الله محمد أمين كردي، جدة ، الشركة السعودية للتوزيع، ط ٣، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م، ج ١، ص ١٣٣، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ٢٢٥ – ٢٢٦، ٢٧٠، ٢٩٠ ؛ ج ٢، ص ٢٣٨ .

ومن أساتذته السيد حسين طه[٢٣]، والسيد علي صقر[٢٤]، والسيد أحمد صقر[٢٥]، والسيد ماجد عشقي[٢٦].

التحق عزيز ضياء في عام (١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م) بمدرسة الصحة بمكة المشرفة، وكان يظنها مدرسة للطب، واستثمر فترة وجوده بها فى تنمية مهارة الكتابة على الآلة الكاتبة فدخل مسابقة السرعة مع عدم الخطأ بحضور الملك فيصل رحمه الله الذي كان آنذاك نائب الملك في الحجاز وحصل على المركز الأول ، ووهبه الملك فيصل مبلغ ثلاثة جنيهاتٍ ذهباً، وعجلة، وساعة يد ثمينة ماركة (زينيث). وبعد هذا التكريم بفترة بسيطة هرب من مدرسة التمريض بعد أن أمضى عام بها عقب حادثة وقعت له مع أحد المعلمين، وأختبئ فترة في بيت وكيله في حي الشامية، ولوحق بالنداء عليه في شوارع مكة المشرفة بسرعة القبض عليه لمن يراه وتسليمه لمديرية الصحة هناك.

---

[٢٣] – السيد حسين طه : كان مديراً للمدرسة الفيصلية إحدى المدارس الأربع التي أنشئت في العهد الهاشمي ، ثم عُين مديراً للمدرسة الراقية عندما تأسست عام (١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ م) ثم عُين مديراً للأوقاف إلى عام (١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م). الخياري ، السيد أحمد ياسين الخياري المدني الحسيني: صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة النبوية منذ بداية القرن الرابع عشر الهجري وحتى العقد الثامن منه ، تقديم ومراجعة وتوجيه فضيلة الأستاذ عبيد الله محمد أمين كردي ، قام بإعداد المخططات وتجزئتها المهندس سمير أنور عدنان عشقي، جدة، مطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٩٥ م . مزادة ومنقحة. ص ١٧٩ – ١٨٠؛ حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ٤١٨ .

[٢٤] – لم نجد له ترجمة فيما بين يدينا من مراجع . وربما يكون أخ الأستاذ أحمد صقر .

[٢٥] – السيد أحمد صقر : ولد في حدود عام (١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م)أحد رجالات التعليم بالمدينة النبوية ، عمل مدرساً بالمدرسة الأميرية (الناصرية) الواقعة بباب المجيدي جوار رباط البوهرة، وكان يطلق على هذه المدرسة أولاً : الإعدادية . ثم مديراً لها ومعتمداً للمعارف قبل أن يتولاها الشيخ محمد سعيد دفتردار. مرشد: طيبة وذكريات الأحبة، ج ١، ص ١٤٦ ؛ ج ٣، ص ١٥٥.

[٢٦] – السيد ماجد عشقي: ولد بالمدينة النبوية عام (١٣٠١ هـ / ١٨٨٣م) مربي فاضا، تخرج من المدرسة الرشدية في جدة في العهد العثماني، وعين مديراً لها في العهد الهاشمي، وعين في عام (١٣٣٨ هـ / ١٩١٩ م) مديراً لإحدى المدارس الأربع التي أنشئت في العهد الهاشمي في المدينة النبوية وهي التحضيرية وتسمى الزيدية ، وكانت نواة للمدرسة المنصورية بعد ذلك. توفى عام (١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م) . الخياري: صور من الحياة الاجتماعية، ص ١٨٠؛ مرشد: طيبة وذكريات الأحبة، ج ٢ ، ص ٧٠ – ٧٥ .

وبعد هذه الحادثة عاد إلى المدينة النبوية وبقى بها عامًا، ثم عاد بعدها إلى مكة المشرفة موظفًا في مديرية الصحة بمسمى مقيد أوراق. ولكنه لم يستمر بها وتركها ليلتحق بوظيفة مقيد أوراق في قلم مديرية الأمن العام، وترقى بعد سنتين إلى وظيفة كاتب ضبط في شرطة المدينة النبوية، وبقى هناك فترة عاد بعدها إلى مكة المشرفة على وظيفة مفوض أول بعد أن أخذ دورة عسكرية قصيرة، عين بعدها رئيساً للمنطقة الثالثة بمكة المشرفة، ثم رقي إلى رتبة مفوض ثاني.

ولم يلبث أن قدم استقالته وسافر إلى القاهرة لدراسة الثانوية بمدرسة الخديوي إسماعيل والتي تعمل بنظام الأربع سنوات للحصول على الثانوية ، وكانت هذه المدرسة تتيح لمن يرغب الدراسة بنظام السنة الواحدة للحصول على الثانوية العامة، ولكنه تعثر ولم ينجح في اللغة الإنجليزية والكيمياء، وأجتاز في الملحق اللغة الإنجليزية ولم يتمكن من النجاح في الكيمياء . فسافر إلى لبنان وألتحق بالكلية الأمريكية في بيروت.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية عاد إلى المملكة ، وأعيد تعيينه في الشرطة، ولكنه فضل أن يلتحق بمعهد التحقيق الجنائي في كلية الحقوق بالجامعة المصرية فاستقال من وظيفته، ولم يكمل دراسته لعجزه عن الإنفاق على نفسه وأسرته ؛ فعاد إلى المملكة ليعين في الشرطة رئيساً لقسم التنفيذ . وعندما تأسست وزارة الدفاع ألتحق بها مساعداً للسكرتير الأول ، ثم عُين بأمر الوزير الأمير منصور بن عبدالعزيز[٢٧] مديراً عاماً للخطوط العربية السعودية ، فوقع خلاف بينه وبين أحد المسؤولين ففصل من عمله .

ثم سافر إلى القاهرة ومكث بها مدة عامين، ألتحق بعدها بوظيفة مذيع مترجم في إذاعات الهند في دلهي. واستدعته الحكومة بعد سنتين للعودة للمملكة لشغل وظيفة مدير مكتب مراقبة الأجانب بمكة المشرفة؛ فكلف بمهمة وضع نظام للإقامة

---

[٢٧] – الأمير منصور بن عبد العزيز ولد عام (١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م) شغل منصب وزير الدفاع والمفتش العام السعودي . توفى عام (١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م) . الزركلي : الأعلام ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

الذي وافق عليه الملك عبد العزيز، وبعد سنتين صدر الأمر بتعيينه وكيلاً للأمن العام للمباحث والجوازات والجنسية، فكلف بإعداد مشروع لتعديل نظام الجنسية والذي تمت الموافقة عليه أيضًا.

إلى جانب أعماله المهنية كان له نشاط إعلامي متميز، إذ كان أول من كتب في جريدة صوت الحجاز منذ صدور عددها الأول عام (١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م)، كما اتجه للتأليف والترجمة، فكتب للإذاعة كمعلق سياسي يومي لأكثر من خمسة عشر عامًا، وكتب للتلفزيون، وقدم العديد من البرامج، وكتب بعض المسلسلات التلفزيونية، ورأس تحرير جريدة المدينة المنورة وجعلها تصدر يومياً دون عطلة أسبوعية، ولكنه نحي بعد ثلاثة شهور.

أصدر جريدة عكاظ وصاحب امتيازها الأستاذ عبد الغفور عطار وتولى رئاسة تحريرها فترة ثم نحي عن رئاسة التحرير.

أسهم بتقديم مشروع للنهوض بإذاعة المملكة في عام (١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م) بناءً على طلب وزير الإعلام في ذلك الوقت معالي الشيخ إبراهيم العنقري[٢٨]. سخر قلمه في الكتابة اليومية والأسبوعية لعددٍ من الصحف والمجلات مثل جريدة الرياض والمدينة وعكاظ والبلاد والندوة ومجلة أقرأ واليمامة والحرس الوطني والجيل. كما ألف العديد من المحاضرات في الأدب والسياسة والتعليم والإعلام .

وبعد حياة حافلة بالعطاء الكثير، انتقل إلى رحمة الله تعالى في يوم ٦ / شعبان / عام ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م[٢٩] .

---

[٢٨] – إبراهيم بن عبد الله العنقري ولد عام (١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م) عُين وزيراً للإعلام عام (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م). توفى عام (١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م). جريدة الشرق الأوسط، الثلاثاء ٥ محرم ١٤٢٩ هـ / يناير ٢٠٠٨ م . العدد ١٠٦٤٠ .

[٢٩] – ضياء ، عزيز: الأعمال الكاملة، كتاب الإثنينية ٢٦ ، الناشر عبد المقصود خوجه، جدة، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م . ج ١، ص ٢٥ – ٢٩ باختصار؛ ضياء، عزيز: حياتي مع الجوع

المحور الثاني: الناحية السياسية والأمنية كما وردت في سيرة عزيز ضياء:

عاصر عزيز ضياء العهود الثلاثة، إذ شهد وهو طفل صغير نهاية سلطة العهد العثماني على المدينة النبوية، ثم كامل العهد الهاشمي ، وبعده العهد السعودي، وترسخت في ذهنه ويلات الحرب العالمية الأولى من رعبٍ وجوعٍ بالإضافة إلى يتمه وما عاناه من فقدان الأب، وقد حرصت والدته على تغذية وإنعاش ذاكرته في كل مناسبة بما مر به؛ لذا لا نستغرب من ذكره لكثير من التفاصيل التي كان لوالدته فضل في بقائها حية في ذاكرته، فما نسجله من تاريخ المدينة النبوية هنا ملتقطٌ من ذاكرته المسجلة في سيرته.

تهجير – السفربرلك[٣٠] – أهل المدينة النبوية :

لصغر سن عزيز ضياء وعدم وعيه للأمور وقت رحيله عن المدينة النبوية هو وأسرته الصغيرة المكونة من الجد الشيخ أحمد صفا أفندي وأمه فاطمة وخالته خديجة وأخيه الرضيع عبد الغفور؛ حيث كانوا يسكنون في منزلٍ ملك الجد في زقاق القُفل أحد أزقة حي الساحة الذي وصفه بالضيق وعدم استطاعت عدد أثنين المشي فيه في صفٍ واحد؛ بل ليس له مخرج. فهذا المنزل كما قال: ولد فيه هو أخيه وأمه وخالته وأخواله[٣١]. فكان كل ما ذكره عن الترحيل؛ وصفه للمودعين بتلويحاتهم للمسافرين عبر القطار والدمع في عيونهم وعيون المسافرين والمودعين الذين كانوا يبادلونهم الحزن والدمع في المآقي؛ وما سمعه من جده: إن أوامر فخري باشا قضت بترحيل أهل المدينة النبوية بعد أن استأذن من السلطان، ولأن الترحيل لم يكن فيما يبدو إجباريًا

والحب والحرب ، بيروت – لبنان ، الناشر التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ٢٠١٢ م. ج ٢ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ – ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩.

[٣٠] – السفر برلك : يقصد به الترحيل أو التهجير الجماعي . ضياء : حياتي ، ج ١ ، ١٦٢ .

[٣١] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ١٦ – ١٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٣ .

بقى بها عددًا من سكانها لم يستطع الباشا إجبارهم، ولكن طُلب منهم تدبر أمور مأكلهم، لأن جميع الأرزاق ستوفر للجند المدافع عنها[٣٢].

ومما وعته ذاكرة عزيز يوم رحيلهم قوله: استعدادهم بصنع طعامٍ يكفيهم أثناء رحلة القطار؛ والمكون من الحيسة[٣٣] والجبن والخبز والماء والشاهي والسكر. وكان الاستعداد قبلها على قدمٍ وساق، فقد أنهمكت الخادمة التي تسمى داد منكشة وهي من معاتيق القازاق في حزم الأمتعة والأثاث داخل صناديق كدست داخل غُرف المنزل؛ أقفلت بعدها بالمفاتيح التي جُمعت في حبلٍ من الصوف الأسود[٣٤]. وأُقفل بعدها باب المنزل بعد أن خرجت منه عائلته المكونة من الجد أحمد صفا وأمه فاطمة وخالته خديجة وأخيه الصغير عبد الغفور. وعُهد بحفظ المنزل لخادمتهم الداد منكشة بعد أن سُلمت لها المفاتيح[٣٥].

وتمر الأيام بعزيز وهو في بلاد الشام بأحداثها الجسام من الحرب والجوع والمرض والموت؛ فقد توفى أخوه عبد الغفور وابن خالته عبد المعين الذي ولد هناك وخالته وجده تباعاً. وبعد انتهاء الحرب عاد منفرداً مع والدته إلى المدينة النبوية بعد أن سجلا اسميهما في إحدى مباني مدينة حلب لكي تحصي الحكومة هناك أعداد العائدين لترحيلهم من حلب إلى دمشق. ولا يتذكر عزيز كيف وصل إلى مخيم تجمع العائدين؛ ولكنه وعى ركوبه في باخرةٍ أقلتهما إلى ينبع، ومن هناك ركبا جملاً إلى المدينة النبوية فوصلاها بعد عدة أيام[٣٦].

---

[٣٢] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ١٧ – ٢٠ .

[٣٣] – الحيسة: تصنع من التمر بعد إخراج النوى وعجنه إما مع الزبدة أو السمن أو الزيت، ثم يوضع قدر على النار لحمس الدقيق مع إضافة قليل من مطحون الهيل والقرفة والزنجبيل حسب الرغبة، ويستمر تقليب الدقيق إلى أن يصبح لونه بني عندها يضاف معجون التمر ويقلب إلى أن يمتزج الدقيق . هذه الطريقة كما نفعلها نحن.

[٣٤] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ١٥ – ١٦ ، ١٩ .

[٣٥] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٦ – ١٨ ، ١٧٤ .

[٣٦] – المرجع نفسه والجزء ، ص ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١٢٨ ، ١٤١ – ١٤٥ .

كان أول شيءٍ فعلته والدته عند دخولها إلى المدينة النبوية؛ قيامها بصلاة الفجر بجانب المسجد الذي يقع في أعلى العنبرية بجوار الأستاسيون، وبعدها لعقت التراب وهي تبكي وتوجها إلى منزلهما في حي الساحة عند زقاق القُفل[٣٧].

ومنذ وصوله إلى المدينة النبوية يبدأ السرد الذي يصف بدقةٍ أحوالها سياسيًا وتعليميًا واقتصاديًا واجتماعيًا وهي الطاغية في سيرته.

أحوال من بقى بالمدينة النبوية من أهلها بعد الترحيل:

ومما سمعه بعد عودته معاناة من بقى بالمدينة النبوية أثناء حصار جيش الأشراف لها، فقد خلت من الأرزاق بعد أقل من شهر من الحصار، فاشتد الجوع مما اضطر بعضهم إلى أكل الكلاب والقطط وجيف الخيل والحمير. وكانت منازل المدينة النبوية خالية ومقفلة بعد سفر أهلها، وأزقتها لا يوجد من يسلكها، مع كثرة الأموات في زقاق القُفل والطوال وحوش الجمال وزقاق الحبس. أما العساكر فقد أنهمكوا بحمل جثث من مات في الليل؛ إضافة إلى انتشار مرض التيفوس أو الكوليرا. وقد وصل إلى سمعهم وهم بالشام أن من بقى بالمدينة النبوية أكلوا الحمير والخيل الميتة من الجوع، بل والقطط والكلاب أيضاً؛ ووصل بهم الحال إلى أكل الأموات المتوفين حديثاً، كما أكلوا أولادهم [٣٨] . وكان الدفن يتم في قباء وقربان والعيون حيث يدفن كل خمسة أو عشرة سوياً. وقصت عليهم خادمتهم الداد منكشة أنها رأت في أحد الأيام بعد صلاة الصبح صبياً صغيراً توفى في زقاق القُفل أمام بيت الصافي وقد أكل الكلب وجهه، وعندما أتى عسكر فخري باشا لدفنه ذكرت لهم والدة الصبي أن والده قد مات كذلك[٣٩] .

---

[٣٧] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٤٥ .

[٣٨] – إن ما ذكر حول أكلهم الأموات وأطفالهم الصغار إنما هي مبالغات لم تثبت والأمر مستبعد لأن النفس البشرية تأنف ذلك . انظر تعليقنا ص ١٣ – ١٤ . في نفس البحث .

[٣٩] – ضياء: حياتي ، ج ١ ، ص ١٤٦ ، ٢٨١ – ٢٨٣ .

واخبرهما الجمَال الذي صاحبهما من ينبع إلى المدينة النبوية: أن الناس أكلوا الحمير الميتة والقطط والكلاب؛ وقيل له: أنهم أكلوا الأموات أيضاً، ولكنه هو لم يشاهد ذلك بل سمعه[٤٠] .

أما أهل المدينة النبوية الذين بقوا بها سالمين إلى ما بعد الحصار؛ فيرجع ذلك إلى استعدادهم بخزن المؤن في صهاريج منازلهم تحت الأرض، فشحنوها بالحب والرز والسمن والفاصوليا والحمص، وبالرغم من ذلك كانوا يقتصدون في الأكل ويقتصرون على وجبةٍ واحدةٍ في اليوم؛ وكان ممن بقى بالمدينة النبوية بموافقة فخري باشا المؤذنين؛ حتى يقوموا بالآذان بعد أن قفلت أبواب المسجد النبوي، فكانوا يجلسون مع الضباط، ويأخذون أُجرة مقدارها قنيطة [٤١] مع لحم مرتين في الأسبوع[٤٢].

إن ما ورد من أخبار عن وضع أهل المدينة النبوية وقت الترحيل وأيام الحصار ذكره جمعٌ ممن شهدوا تلك الفترة؛ إذ أجمعوا على أن الداعي للترحيل كان انقطاع المؤن عن المدينة النبوية[٤٣]. ومما ذُكر أيضاً قولهم: أن أشد أيام الحصار منتصف عام (١٣٣٦هـ / ١٩١٧ م) إذ أصدر فخري باشا أمره بمنع البيع والشراء في الأغذية [٤٤]؛ حتى وصل سعر عدد من الأرغفة المهربة بجنيهٍ ذهباً؛ وعندما يشتد الجوع ولا يجدون ما

---

[٤٠] – المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

[٤١] – القنيطة: تصنع من الدقيق تشبه الشابورة ، وهي عبارة عن عيش خبز يجفف مباشرة بعد خروجه من الفرن وعند استعماله يبل بالماء الحار فيعود كما لو أنه خرج لتوه من الفرن. مرشد: طيبة وذكريات الأحبة ، ج ٢ ، ص ٩٩ ؛ ضياء حياتي ، ج ١ ، ص ١٠٦.

[٤٢] – زيدان: الأعمال الكاملة، ج ٤ ، ص ١٤١ ؛ ضياء : حياتي، ج ٢ ، ص ١٢٠ – ١٢١؛ ج ١ ، ١٠٦.

[٤٣] – مرشد: طيبة وذكريات الأحبة ، ج ١ ، ص ٨٧ ، ١٧٠.

[٤٤] – زيدان : الأعمال الكاملة ، ج ٤ ، ص ١٣٨ .

يأكلونه يربطون بطونهم، وكان من يملك المال يشتري الأغذية الخاصة بالجند من قبل الضباط الموجودين داخل القشلة ولكن بأسعار باهظة. فمن ذلك شراء خمسة أقراصٍ من خبز العسكر بجنيهٍ ذهباً، ووصل سعر التمرة الواحدة بـريال. أما الأهالي الذين ليس لهم مقدرة على دفع تلك الأموال ولشدة الجوع؛ يتبرع بعض الشباب من أهلها بالمخاطرة في السير داخل الدبول ومجاري الماء غير عابئين بلسعات العقارب والثعابين ؛ ومن خلالها يخرجون إلى خارج السور لأخذ ما تحمله النخيل من رطبٍ وبلحٍ ، ثم يعودون إلى داخل المدينة النبوية ليلاً لإطعام عائلاتهم؛ وهو لا يتعدى غذاء يومٍ واحد. فقد وصفوا تلك الأيام بأنها في غاية الشدة. ففخري باشا بعد ترحيل الأهالي أنصرف بالكلية للمقاومة؛ فأستخدم الجزء الأخير من المسجد النبوي لتخزين الأسلحة والمدافع ، كما أستخدم بعض منارات المساجد كأبراج للمراقبة. ومن التحصينات التي أحدثها لتسهيل الوصول للمسجد النبوي إزالة بستان كان في شارع العينية وبعض المنازل في المنطقة بحيث أصبح شارعاً من أجمل الشوارع تنسيقاً بالرغم من قصره ، وفي نفس الوقت موازي لطريق حي جوه المدينة. وكما عانى من بقى من أهلها المجاعة والمرض عانى أيضاً منهما الجنود الذين سقط العديد منهم موتى؛ وذكر من وجد بالمدينة النبوية في تلك الفترة أن فخري باشا استخدم منازل البشناق في باب المجيدي كمصحة لعلاج المصابين من الجنود[٤٥].

وحدد بعض من شاهد الترحيل بعام (١٣٣٤ هـ / ١٩١٥ م) وأطلقوا عليه مسمى السفربرلك. ومن الأمور التي حكاها أحدهم في تلك الأيام: أن أحد التكارنة تمكن من الإمساك بقط بعد أن أصبح وجوده نادراً ، وربما يساوي ثمنه خروف في الأيام العادية ، والغريب في الأمر أن أثنين من أهل المدينة النبوية اشترياه منه بثلاثة جنيهاتٍ ذهباً، وذهبا به إلى أحد الجزارين الأتراك فوق كبري المدرج ليذبحه، واستفسرا عن ثمن ذبحه ، فأجابهم استعداده لذبحه وسلخه شريطة أن

[٤٥] – مرشد : طيبة وذكريات الأحبة ، ج ١ ، ص ١٦٧ – ١٦٨ ، ١٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٧٥ .

يشركوه في أكله. وأضطر بعض أهل المدينة النبوية لسد جوعهم بالبحث بين روث الجمال والخيل عن الشعير كي يقتاتوا به. وحكى آخر قصة اثنين من سكان قباء رفضا الرحيل وكانا ينامان تحت شجرة السبيل بباب الشامي؛ ولما رآهما فخري باشا عرف رغبتهما في البقاء، فأمرهما بالعمل في دفن من يموت من الجنود في البقيع مقابل قرصين من العيش والتمر بعد مغرب كل يوم ؛ فكانا يدفنان الأموات من الجنود بدون كفنٍ أو غسل بأمرٍ من فخري باشا كما قيل[٤٦] .

ومما يذكر أيضًا عن تلك الأيام المريرة: أن من أراد الخروج من المدينة النبوية بعد الترحيل وشدة الحال وغلق الأبواب؛ لا يسلم من أذى ونهب جنود الأشراف بعد خروجهم. ومن ضمن طُرق تدبير مأكل من بقى في تلك الأيام العصيبة؛ ما ذكره أحدهم عن مشاهدة موت أحد الخيول الخاصة بقائد عسكري عثماني، فحمله الجنود ورموه في منطقة المساجد السبعة، فبادر عددٌ من الأشخاص لقطع أجزاء من لحمه، فسبقتهم إليه الكلاب وحاولوا أبعادهم إلى أن تمكنوا من أخذ قطعةٍ من لحمه[٤٧] .

وقد وصفت الخادمة داد منكشة لهم الوضع في ذلك الوقت فقالت: إن منازل المدينة النبوية أصبحت خالية وكذلك الأزقة المؤدية إلى الساحة والحرم النبوي، وأكدت على كثرة الموتى في زقاق القُفل والطوال وحوش الجمَال وزقاق الحبس؛ وعللت كثرة الموتى بقول طبيبٍ في (الخشتخانة) – المستشفى– الذي عزاه لمرض الكوليرا أو التيفوس. وأكدت كذلك ندرة الأرزاق في أثناء الحصار، فمن بقى ليس لهم نصيبٌ من الأرزاق التي كانت توزع سابقاً ؛ لتوفيرها للجند المدافعين. وكان أهلها يتداولون القول: أن فخري باشا وجنده يدافعون عن المدينة النبوية ضد النصارى وعساكر الشريف. فالدولة الوحيدة التي يعرفها أهل المدينة النبوية جيداً هي الدولة العثمانية، ويحفظون عن ظهر قلب أنها الخلافة، والخليفة هو خادم الحرمين الشريفين خاقان البرين والبحرين وسلطانهما وخليفة المسلمين أو ما يسمى بالبادي

---

[٤٦] – ضياء : حياتي، ج ١ ، ص ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٨٣ – ١٨٤ ؛ ج ٢ ، ص ٢٥ .

[٤٧] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٨٠ ، ٣٢٣ .

شاه موجود في دار السعادة باسطنبول ؛ والناس تحفظ عن ظهر قلب أن من فتحها وأزاح الكفار عنها السلطان محمد الفاتح ، وهم يعلقون صورته وهو على جواده وفي يده سيفه وقد أشهره عالياً يتقدم جيشه في البحر وليس البر؛ لأنه فتح القسطنطينية بالهجوم عليها وعلى أسوارها العريضة الشاهقة من البحر. أما الدول الأخرى التي دخلت هذه الحرب فقلة قليلة منهم يقرؤون ويكتبون باللغة التركية ويدركون أن هناك دولاً أخرى مثل الروس والإنجليز والألمان والروم وهم اليونان والإغريق؛ فالدولة العلية العثمانية قد اشتبكت في حروب مع هذه الدولة أو تلك؛ وحتى إذا قيل لهم أن الدولة العلية تحارب الروس أو البلقان أو الإنجليز فالمسألة لديهم محسومة وتافهة؛ لأنها الدولة العلية ولا بد أن تنتصر، وهم يرون أكثر ما خاضت الدولة العلية حروب مع الكفار وانتصرت عليهم ، فأسلموا بل أصبحوا يحاربون في صفوف جيش الدولة العلية الذي يملأ البر والبحر. فأهل المدينة النبوية لم يسمعوا قط أنها هزمت طوال مئات السنين؛ وكان محط تساؤلهم: فما الذي يجعلهم ينهزمون الآن؟ وحتى نظرتهم للسفربرلك بأنه شيء مختلف بسبب اشتراك جميع دول العالم لحرب الدولة العلية فهي تحارب وحدها وليس معها إلا ألمانيا. ولكن حدثت لهم الفاجعة بنهاية الدولة العلية وانتصار قوات الإنجليز والعرب وخروج الجيش العثماني من المدينة النبوية إلى الأبد[٤٨]

هذه نماذج من الشدائد التي عاشها من بقى بالمدينة النبوية بعد الترحيل وأثناء الحصار وما كان يدور في خاطرهم من أفكار، ولكن لا نميل إلى أن بعض أهلها الباقين أكلوا جثث الأموات حديثي الدفن أو أكلوا أولادهم ؛ فهذا مستبعد، لأن مشاهدات من بقى فيها لم يشيروا لأمر كهذا؛ بالإضافة إلى أن كل من ذكر ذلك وصل عن طريق السمع إلى من بالشام وغيرها من المناطق خارج المدينة النبوية [٤٩]. وهذا الأمر كما ذكرنا سابقاً أمرٌ مستبعدٌ، إذ يبدو أنها مبالغات لتحطيم معنويات الآخرين.

---

[٤٨] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢٨١ – ٢٨٢ ؛ ج ٢ ، ص ٧ – ٨ .

[٤٩] – المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، ٢٨٢ ؛ حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ٤٨ ؛ مرشد : طيبة وذكريات الأحبة ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ٢٧٥ .

المدينة النبوية تحت الحكم الهاشمي:

فاجعة نهب المنازل:

كان لجد عزيز أملاك في المدينة النبوية منها بستان في العنبرية داخله بئر يستخرج منه الماء بواسطة طرنبة يدوية، بالإضافة إلى بيت في باب المجيدي ودكاكين هناك، علاوة على البيت الذي كانوا يسكنونه في زقاق القُفل في حي الساحة، وهذا المنزل قدر عمره بأكثر من١٠٠ عام في تلك الأيام[٥٠]. وهو الذي عادوا إليه بعد عودتهم من الشام والمفاجأة التي تلقوها بنهبه.

ذكر عزيز ضياء فاجعة نهب منزلهم، فعندما وصل هو وأمه إلى المنزل وجدا خادمتهم الداد منكشة التي بقيت سالمة أثناء الحصار؛ وفوجئت والدته أن الدار نهب ولا يوجد به من الأثاث إلا مسنداً ملبس بقماش حريري يسمى الدمسك وعليه تلبيسه مطرزة بالقصب ؛ وهنا روت لهما الداد منكشة أن الدار نهب من قبل القوات التي دخلت المدينة النبوية بعد خروج فخري باشا وقواته وتسليمها ؛ وأن هذا النهب طال جميع المنازل التي تركها أصحابها المرحلين إلى الشام ، ولكن هناك بعض البيوت سلمت من النهب بسبب حرص أصحابها وإحكامهم سد الأبواب من الداخل بعوارض خشبية وحديدية ، ثم خروج آخر شخص من المنزل عن طريق السطح إلى المنزل المجاور؛ وتعود سلامة بعض المنازل والدكاكين من النهب أنها سُلمت لقوات الشريف من قبل فخري باشا رسمياً قبل خروجه مع قواته؛ وبطبيعة الحال سردت على مسامعهما الجوع الذي عم من بقى بالمدينة النبوية حتى اضطروا إلى أكل الكلاب والقطط ، بل جيف الخيل والحمير، ولم يلحقها الجوع لأنها عملت لدى أحد الضباط العثمانيين الذين غادروا مع فخري باشا بعد تسليم المدينة النبوية[٥١].

---

[٥٠] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ٤١ ، ١٩٧ .

[٥١] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ١٤٦ ، ١٧٥ ، ١٩٨ ، ٢٢٨ .

ومما حكاه عزيز ضياء عن الداد منكشة عن أوضاع من بقى بالمدينة النبوية فترة حصار القوات العربية لها ؛ أكده العديد ممن عاصر هذا الحدث وبقوا فيها أثناء الحصار[٥٢] .

بمجرد من عاد من أهل المدينة النبوية بدأ تبادل أخبار اللصوص الذين سطوا على المنازل، وسؤالهم عن كيفية استرجاع ما سرق؛ ولكن لم يعرف المسئول الذي يتم مراجعته لضبط اللصوص والمسروقات ، وممن حاول معرفة شيء عن ذلك كانت والدة عزيز، ولكن لم تظفر بطائل[٥٣] . وتناقل الناس ما حدث حول عمليات النهب ؛ فذكروا أنه من لحظة خروج فخري باشا وقواته من المدينة النبوية ودخول جيش الشريف حسين إليها ؛ وكان هذا الجيش مكون من مرتزقة الأعراب فبادروا بنهب الدور المغلقة التي تركها أصحابها ورحلوا إلى الشام أو العراق أو من ذهب إلى ينبع ومكة المشرفة والقصيم وغيرها من المناطق[٥٤] .

ومن أمثلة ما نهب من بيت عزيز؛ سرقة جميع الأثاث من فُرش مكونة من عددٍ كبيرٍ من الطواويل – جلسات من القطن والطِرف – ومساند ومتكآت وصناديق كبيرة مشحونةً بالكثير من أطباق وأكواب الصيني وأباريق من النُحاس، وأيضًا عددًا كبيرًا من الخيام والقدور الكبيرة والتباسي الضخمة ، وحنفية ماءٍ كانت منصوبةً عند مدخل ديوان المنزل ، وجميع أدوات الإضاءة ؛ بالإضافة إلى الكثير من الكتب التي كانت تخص جده أحمد صفا أفندي[٥٥] .

---

[٥٢] – مرشد : طيبة وذكريات الأحبة ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، ١٧٦ ، ٢٧٥

[٥٣] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ١٧٦ .

[٥٤] – المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ؛ مرشد : طيبة وذكريات الأحبة ، ج ١ ، ص ٨٧ ، ٩٥، ٩٩ ، ٢٧٥ ؛ ج ٢ ، ص ١٦٦ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ .

[٥٥] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢١٤ – ٢١٥ ، ٢١٧ ، ١٧١ – ١٧٢ .

ومما سمعه عزيز أن اللصوص كانوا لا يتورعون عن كسر الدواليب وصناديق السيسم الكبيرة، بل حتى الحديد منها بحثاً عن الذهب، وإذا صادف أن تصدى لهم شخصٌ قتلوه؛ مثلما قتلوا أحد عبيد بيت الصافي، وذكر أن بعضهم لا يزال بالمدينة النبوية يدخلون المنازل التي لم يعد أصحابها . وأضاف أنه قُتل شخصٌ بالمناخة على مرأى ومسمع من الناس عندما لاحظ وجود أحد اللصوص ونبه المارة، ومع أن الساحة كبيرة ومليئة بالناس ولكن استطاع اللص قتل من نبه عليه وهرب[٥٦] .

ويبدو أن المدينة النبوية في تلك الفترة المبكرة من استلام حكومة الأشراف لها، لم تكن آمنة تماماً، إذ ذكر عزيز أنه كان هناك خوفٌ دائمٌ من البدو خاصة عند الخروج ليلاً إلى موضع سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه؛ فهؤلاء يسرقون كل ما في جيوب الناس إذا لم يكونوا مسلحين، وقد شاهد هو بنفسه أثنين من البدو يجلسان تحت نخلةٍ ليس عليهما إلا ما يستر عورتهما، وفي يد كل واحدٍ منهما بندقية أو سيف عند جبل سلع، فخاف منهما وعاد إلى باب الشامي حيث يوجد هناك عددٌ من الجنود والضباط الذين يدققون في الداخلين إلى المدينة النبوية؛ وقد اخبره صاحب الحمار الذي أستأجره أن البدو متربصين بالمارين فيسرقونهم، إلا الذي يحمل سلاحاً، وهم يأخذون كل ما يحمله الشخص وربما ملابسه أيضاً، فيعود إلى أهله عاريًا، وحدد له هؤلاء البدو بأنهم ليسوا بدو العقيل والساكنين حول المدينة النبوية، بل هم من بدو العراق والشام؛ فهؤلاء كانوا ضمن جيش الشريف وقد استغنى عنهم ولم يعد يدفع لهم رواتب؛ فاشتغلوا بسلب الناس؛ وكان رأي أهل المدينة النبوية فيهم: أنهم طالما تجرئوا على حرب السلطان فلا مانع لديهم من نهب البيوت لعدم خوفهم من الله [٥٧].

---

[٥٦] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢١٢ .

[٥٧] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١١٨ ، ١٢٠ – ١٢٢ ، ١٩٨ .

وبرغم تكالب المصائب على أهل المدينة النبوية من الترحيل والجوع والمرض وموت بعضهم، فقد وجد من عاد منهم منزله منهوبًا، ولا يعلمون الأشخاص الذين قاموا بذلك، ولكن كل الدلائل تشير إلى مرتزقة جيش الشريف الذين دخلوا المدينة النبوية ولم يكن هناك من يضبط تصرفاتهم ويقمعها. أما كيفية استرجاع ما نهب من المنازل فليس لهم إلا طريقة واحدة: هي إعادة شراءها من الحراج، لأنه لا يوجد مسئول يراجعونه لضبط اللصوص وإعادة المسروقات، فجميع المسروقات مكدسةٌ في الحراج، يدلل عليها الدلالين لبيعها. وكان شيخ الدلالين في مقره في دكان كبير بجوار شجرة النبق. وقد ذكر لأم عزيز أن اللصوص كانوا بالمئات، لذا استطاعوا نهب البيوت بعد خروج فخري باشا وجنده من المدينة النبوية [٥٨].

أما الكلام الشائع بين نساء أهل المدينة النبوية عند اجتماعهن فيتداولن فيما بينهن أن طريق اسطنبول قد قُفل وعُزل السلطان رشاد[٥٩]، والكبيرات في السن منهن لا يصدقن ما يقال، ويرفضن هذا الأمر معللين: أن لا أحد يستطيع فعل ذلك، فتبادر بعض الحاضرات لإقناعهن أن السلطان عبد الحميد سبق وأن عُزل، وأيضاً يرفضن تصديق ذلك ويعللن: أنه أراد التفرغ للعبادة والذكر، وأمرهم أن يعينوا السلطان رشاد الذي يسمونه " البادشاه " وهو موجود في قصر يلديز، كما أن اسمه لا يزال على أوراق المحكمة وعلى عملة المجيدي. ويستمر النقاش لإقناع النساء الكبيرات في السن؛ يذكرونهن بأن الشريف والنصارى تعاونوا ضد عساكر السلطان وطردوهم من أرض الشام كلها، والآن لا يوجد في المدينة النبوية عساكر للسلطان فقد خرجوا مع فخري باشا الذي خرج بغير إرادته. وأن كل ما حصل في الشام والمدينة النبوية إنما بأمر – البادشاه – السلطان ؛ إذ رفع شعار " حريت عدالت مساواه باديشاهم شوق

---

[٥٨] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٧٦ ، ١٧٨ – ١٧٩ ، ١٨١ – ١٨٢ ، ١٩٨ .

[٥٩] – السلطان محمد رشاد خان الخامس، بويع بعد خلع السلطان عبد الحميد عام (١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م) . فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١٢ – ٤١٥ .

يشا " وهذا الشعار يقال على هيئة نشيد. ومعناه – حرية عدالة مساواة عاش السلطان – . فمجمل الكبيرات من النساء يرفضن التصديق بزوال الدولة العثمانية وأن من مات إنما بسبب الشوطة – أو الوباء – وأن أخبار الحرب تصل إلى المدينة النبوية عن طريق الجارزيتا – الجرائد ؛ ولا يتوقف عدم التصديق بزوال الدولة العثمانية على النساء الكبيرات ؛ بل شمل أيضاً البسطاء من الناس الذين يرددون أن فخري باشا عائدٌ لا محالة مهما كلفه الأمر ، ويرد عليهم العارفين بأن الباشا لن يعود والباديشاه – السلطان – أصبح لا يستطيع الخروج من قصر يلديز لأن النصارى دخلوا اسطنبول ؛ وأن الطُرق مغلقة بعد استيلاء الروس البلشفيك على روسيا [٦٠]– .

أمراء المدينة النبوية في العهد الهاشمي:

لما ضُمت المدينة النبوية لحكم الدولة الهاشمية ، عين الملك حسين بن علي ابنه وولي عهده الأمير علي[٦١] أميرًا عليها ولم يباشر إمارتها، بل أسند إمارتها وكالة عنه للشريف أحمد بن منصور الكريمي[٦٢]منذ منتصف رجب عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) إلى عام (١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٤م) حيث سلمت للأمير محمد بن عبد العزيز. وكان بجانب الشريف أحمد؛ الشريف شحات بن علي بن الحسين بن فهد الحسيني كقائم مقام بها[٦٣].

---

[٦٠] – ضياء : حياتي، ج ١، ص ٢٧٦ – ٢٧٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١.

[٦١] – علي بن الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، عينه والده أميراً على المدينة النبوية، وعين على حكمها نيابة عنه الشريف أحمد بن منصور الكريمي. تولى ملك الحجاز بعد تنازل والده ، ثم تنازل الملك علي عن حكم الحجاز وغادر جدة عام (١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) توفى في بغداد عام (١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م). الزركلي: الأعلام ، ج ٤، ص ٢٨١ – ٢٨٢؛ البرادعي: المدينة المنورة، ص ١٣٨ – ١٣٩ .

[٦٢] – لم نجد له ترجمة فيما تناولناه من المؤلفات ، وهو من تولى تسيير أمور المدينة النبوية نيابة عن الأمير علي بن الحسين .

[٦٣] – البرادعي : المدينة المنورة ، ص ١٣٨ – ١٤٠ . لم نجد له ترجمة فيما تناولنها من مراجع .

إرهاصات بنهاية الدولة الهاشمية :

ذكر عزيز ضياء تناقل طلبة المدرسة الراقية الهاشمية أخبارا سمعها بعضهم من البدو الذين يحضرون قوافل السلع من ينبع وغيرها إلى المدينة النبوية؛ عن وجود مناوشات بين القبائل التابعة للشريف وقبائل أُخرى في موقع سموه " تُربة [٦٤] "، وأن هناك حرباً قريبة. وهناك قبيلة تسمى حرب دأبت على قطع الطريق على الحجاج القادمين لزيارة المدينة النبوية، وحدد مصدر معلومات الطلبة من أبائهم وأهلهم، فأهل المدينة النبوية أصبحت أحاديثهم تدور حول حرب بين الشريف بمكة المشرفة وبين قبائل الشروق – أطلقوا عليهم مسمى المتدينة – وأنهم سبق أن دخلوا المدينة النبوية منذ زمن وبقوا بها سبع سنوات، ولم يخرجوا منها إلا بعد أن حلت بهم شُوطة الجدري. ومن جراء هذه الأخبار دخلهم الخوف عند سماعهم أنهم قادمون لأخذ المدينة النبوية، ومرد خوفهم لما حُكي لهم عن أفعال أفزعت الناس في ذلك الوقت. وعندما تدور مثل هذه الأحاديث تختم بقول أحدهم " فال الله ولا فالك وقول الله لا يقدر[٦٥] ".

وبدأ يُمهد لصحة خبر الحرب للتلاميذ بواسطة مدير المعارف في ذلك الوقت والذي كانت تأتيه الأخبار عن طريق الجرائد القادمة من الشام ومصر وجدة ومكة المشرفة؛ فقد أبلغهم أنه ربما تُغلق المدرسة ، ولكن بعد الامتحانات، وعلى الطلبة الاستمرار في الاستذكار في المنازل ومن يشكل عليه أمر يرجع للأساتذة في منازلهم، بل حتى مراجعة مدير المعارف نفسه، إذ تعذر وجود الأساتذة لانشغالهم[٦٦].

---

[٦٤] – تُربة: من أودية الحجاز الشرقية، به بلدة تربة بها مزارع خصبة. البلادي، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز ، مكة المكرمة، دار مكة ، ط ١، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م . ج ٢، ص ٢٠.

[٦٥] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٥٤ – ١٥٦ .

[٦٦] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٥٦ – ١٥٧ ، ١٥٩ .

وتبدأ الأزمة فعليًا بعدم صرف الرواتب لأكثر من ثلاثة أشهر؛ ووصول الأخبار عن طريق بعض الصحف الآتية من الشام ومصر ومكة المشرفة وجدة. ولم يكن بيد أمير المدينة النبوية بالنيابة أحمد بن منصور، وقائد الحامية العسكرية عبد المجيد أحمد باشا [٦٧]عمل شيء سوى تهدئة العسكر بتسليمهم بعض الأغذية من الدقيق الذي ربما ينفد من المخازن؛ بسبب حرب الحكومة مع قبائل الشروق[٦٨].

ويدور الحديث عن سبب الأزمة الذي يعود إلى توقف الإنجليز عن تسليم أموال للشريف كان يستلمها منذ أن قام معهم بمحاربة الدولة العثمانية التي أطلق عليها "النهضة العربية". وأصبح الجميع يقتصد في المصروف وشراء الأغذية؛ لأن الحرب ربما تطال المدينة النبوية أيضاً. وأصبحت ساحة المناخة قاصرة على تدريب الجند الذين يصطفون يوميًا هناك لاستعداد الباشا للحرب. وأحس الناس بالخطر وتهافتوا على شراء الأرزاق التي غلى سعرها كثيراً. بسبب انقطاع وصول القوافل المحملة بالمؤن من ينبع؛ مما ينذر بحصار يشبه ما حدث أيام فخري باشا الذي لم ينسوه بعد[٦٩].

تيقن أهل المدينة النبوية أن الأمر واقعٌ وأن الحرب قائمة بين الشريف وبين ما يسمى بالشروق الذين سبق أن دخلوها منذ زمن ولم يرض عنهم أهلها؛ لأنهم كما قيل لهم قاموا بأعمال أفزعتهم وأخافتهم. وتساءل ضياء مع غيره عن من هم هؤلاء

---

[٦٧] عبد المجيد أحمد باشا: كان قاذد الحامية العسكرية بالمدينة النبوية من قبل حكومة الأشراف، كان قائداً ذو كفاءة عالية ، تلقى علومه الإسلامية في استانبول، وحارب في صفوف الجيش العثماني في قناة السويس، أُسر، ثم أرسل إلى الجيش العربي مع بقية الضباط العرب، دافع عن المدينة النبوية حتى لا تقع في يد الجيش السعودي، ولكنه اضطر إلى تسليمها أخيراً. بدر: التاريخ الشامل، ج ٣، ص ١٤١ – ١٥٩.

[٦٨] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

[٦٩] – المرجف نفسه والجزء ، ص ١٥٩ – ١٦٣ .

الشروق ؟ فتأتي الإجابة بأن منهم من يسكن المدينة النبوية، ولهم سوق باسمهم يسمى" سوق الشروق[٧٠] " يقع قبل سوق حي جوه المدينة النبوية وقبل الخروج من باب المصري ، وهذا السوق يمتد طويلاً فيه العديد من الدكاكين التي تبيع سلعاً كثيرة منها: الشماغ والعقال الأسود، وهؤلاء أُناس طيبون، بل يوجد جيران لهم من الشروق وأولادهم لم يؤذوا أحدًا، فكيف يستقيم ما سمعوه مع ما يشاهدونه من طيبتهم[٧١] ؟ فهذه من ضمن الأحاديث التي كانت تدور وأوقعتهم في حيرة من أمرهم في ذلك الوقت.

ولعل من المناسب هنا سرد ما وصفه عزيز عما كان يجري يومياً في المدينة النبوية في تلك الفترة؛ وما كان يدور بين الناس من أحاديث وتحذيرات. فمن ذلك تأكيده على أن بعد أذآن الظهر ينصرف الجند إلى القشلة التي تقع أمام التكية المصرية، ولشدة خوف أهل المدينة النبوية على أولادهم يحذرونهم من الابتعاد عن باب المنزل. أما من كان مسئولاً عن أمر يخدم الناس مثل زوج أمه الدكتور ضياء؛ فقد أنشغل في حصر الأدوية في المستشفى ومراجعتها بالدفاتر، فالحصار قد بدأ، وانقطعت الأخبار عن مركز الدولة بمكة المشرفة بانقطاع اتصال اللاسلكي. وفي أثناء الحصار قلة الأموال ، ولم يستطع بعض الأهالي شراء الأغذية التي أصبح سعرها غالٍ جداً، خاصة وأن رواتب الموظفين توقف صرفها لأكثر من ثلاثة أشهر؛ فلو فرض أن قاموا بالشراء بالدين فكيف سيسددونه ؟ فالحرب لا يُعرف متى تنتهي؟ وقائد الحامية العسكرية عبد المجيد باشا أصدر أوامره للضباط بعدم تسليم المدينة النبوية أبداً؛ وفي المقابل طمأنهم أن هؤلاء المحاصرين سوف يطاردهم الشريف إلى أن يعيدهم إلى بلادهم ويلقنهم درساً بعدم تهديده مرة أُخرى؛ فهو ملك العرب الذي حارب الدولة العثمانية، وأخذ الشام والعراق عندما كان الإنجليز يمدون له العون. والآن الإنجليز توقفوا عن دعمه؛ وكان يطرح تساؤلاً فيما بينهم: لماذا لا يساعدونه وهو من حارب معهم إلى أن ضاعت الدولة العثمانية ؟ ويبدو أن السبب هو أن الإنجليز يريدون حكم جميع البلاد التي

---

[٧٠] – ورد ذكره لدى زيدان . انظر زيدان : الأعمال الكاملة ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ .

[٧١] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .

أخذوها، وفي إشارة من عزيز ملاحظته أن الحامية العسكرية بالمدينة النبوية لديها نقص في البارود. وذكر أن زوج أمه الدكتور ضياء كان يقوم بصنعه في مستشفى درب الجنائز لسد العجز؛ فقد كان يصنع يومياً ٣٠٠ كيلو من البارود فيما لو طالت الحرب[٧٢] .

وبما أن زوج أم عزيز لديه إلمام بالأسلحة؛ فقد كان يتعرف على نوعية المدافع من صوتها، وكانت القذائف تطلق من قلعة سلع، ولا تطلق إلا عند الإحساس باقتراب المهاجمين. وأطلق على المهاجمين مسمى الأخوان، ومنهم فرقة تسمى الغطغط؛ وهو جيش ابن سعود، التي كانت أسلحتهم عبارة عن البنادق والسيوف. ووصلت أنباء لأهل المدينة النبوية أن الشريف رحل عن مكة المشرفة وأصبح الملك ابنه علي الذي تولى الدفاع عن جدة ؛ ولأن المدينة النبوية تتبع حكومة الشريف فالواجب الدفاع عنها. فبالرغم من هدير المدافع وأزيز الرصاص الذي يملأ أجواء المدينة النبوية ليل نهار، فهم في دفاع عنها لأنه واجب وعدم الدفاع وتسليمها يعتبر خيانة، لذا الموت أشرف، ولم يكن هذا الموقف قاصراً على الكبار، فالصبية لم يكونوا بعيدين عن الحدث، فعندما يتجرأ أحد الصبية بقوله: لماذا لا يسلم الباشا قلعة سلع ؟ يواجه ببحلقة عيون الجميع ، وتقطيب الحواجب ، ويردون عليه ألم تسمع عن الشيء الذي سيحدث إذا دخل المهاجمون ؟ ويرد من سمع أحاديث الكبار المفجعة، عندها يستكين الجميع ويدعون أن ينصر الله الباشا الذي يدافع عن المدينة النبوية[٧٣]. هكذا كانت أفعالهم وأقوالهم في ذلك الوقت العصيب؛ ولا شك أن الإشاعات كثرت في تلك الفترة فأدت إلى هذا الموقف منهم. فمن الإشاعات التي تناقلها الناس: أن المهاجمين عندما يدخلون المدينة النبوية ليس لديهم إلا القتل والذبح بالسيوف والسكاكين، فكان بعضهم يطمئن الموجودين بأن لديهم البنادق والذخيرة والرجال الذين يحسنون استخدامها فلا لزوم للخوف لأنهم قادرين عن الدفاع عن أنفسهم[٧٤].

---

[٧٢] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٦٧ – ١٦٩ .

[٧٣] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٧٤ – ١٧٧ ، ١٧٩ .

[٧٤] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

أصبح الوضع بالمدينة النبوية ينذر بكارثة لقلة الأرزاق في الأسواق ؛ كما أشار لذلك عزيز؛ فقد أنعدم السكر والشاهي والخبز ولا يوجد إلا أرز يسمى الكبة ووصف رائحته بالمقرفة بعد الطهو، ولكنهم يأكلونه لانعدام الأنواع الأخرى الجيدة مثل: أرز المزة أو الهورة . ولم ينس أن يصف وضعهم في المنزل؛ الذي لم يكن به إلا كيسين من الدقيق، فيعدون الخبز في المنزل ويحمل على ألواح لخبزه بأحد المخابز. وقال: إن الأولاد الحاملين لألواح خبز أهاليهم يسأل بعضهم بعضا كم بقى لديهم من الدقيق ؟ فإذا كانت الإجابة كثير يطلب منهم من قل الدقيق لديهم بأن يبيعوا لهم بعضه. وذكر أنه أصبح لديهم في المنزل دقيق يكفي لثلاثة أيام فقط ، ورغم قلة الأقوات كانت المدافع لا تتوقف ، وإذا توقفت يستغربون توقفها[٧٥] .

ومن الأحاديث التي كانت تدور وقتئذ بين الصبية في المدينة النبوية للدفاع عنها وتدل على توفر الأسلحة لدى البعض من سكانها، واقترح بعضهم: أن يدعوا المهاجمين يدخلون ويدافعون عن أنفسهم لأن لديهم في منازلهم أسلحة، فالآباء والأعمام والأخوال يجيدون استخدامها، ويتدخل في الحديث أحد الصبية وهو ابن أحد أشراف المدينة النبوية ويدعى الشريف جدوع فقال: " إنه وإخوته يعرفون كيف يستخدمون البندقية، ولديهم سلاح كثير؛ ووالده سأل الباشا بأن يدعهم يخرجون لملاقاة المهاجمين"، ولكن الباشا رفض قائلاً : "هو المسئول فالحكومة هي التي أمرته بالدفاع عن المدينة النبوية " فيرد الصبية أين حكومة الشريف؟ في مكة المشرفة ؟ في ينبع ؟ في جدة ؟ نحن نسمع أنهم لم يستلموا المعاشات منذ زمن؛ فمن أين يأكل الناس؟ من التعيين ؟ – حصة من المؤن تصرف لكل عائلة [٧٦] –.

---

[٧٥] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٧٨ – ١٧٩ .

[٧٦] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٨٠ .

ويتابع عزيز في نقل صورة حال المدينة النبوية ، فالأسواق مغلقة في المناخة، وباب المصري، وكان حال أسرة عزيز في المنزل ليست بأحسن حال من غيرهم، فلم يعد لديهم دقيق الحب، واكتفوا بأكل وجبةٍ واحدةٍ إما من الفاصوليا، أو اللوبيا في الظهر، ويتناولون حريرة في الصباح بالملاعق. بل أحياناً يقتصرون على أكل الفاصوليا والكرنب ووضع البهارات والتوابل عليها. وفي هذه المواقف العصيبة سمعوا حركة القطار وصوت صفارته لأول مرة منذ توقفه، وقائده يدعى محمد علي هوندجي[٧٧]، فأنعش الآمال فى النفوس فالقطار يحمل الأرزاق التي سلمت فيما بعد للباشا، فقسمها على العسكر وبعض التجار لبيعها للناس[٧٨].

ويكمل عزيز حديثه عن أحوال المدينة النبوية في تلك الفترة، فمما ذكره وجود الكثير من القنيطة ونتكات اللحم المقدد وعلب الخضار في مخازن المستشفى، وقد سلمها فخري باشا قبل خروجه من المدينة النبوية بثلاثة أشهر إلى زوج أمه الدكتور ضياء، فكان يرسلها إلى القشلة، لأن العسكر في حاجة لها لأنهم يدافعون عن المدينة وهي تكفيهم لستة أشهر، وكانت طلقات المدافع متوالية في عز الظهيرة على حد قوله، والهجوم من جهة قباء والعوالي والجنود متمركزون عند مدخل قباء والهجمات تأتي من وراء البقيع، ولا يتوقف رمي المدافع إلا إذا شاهد المهاجمون يقعون صرعى، أو يهربون، وأكد على أن كثرة إطلاق المدافع تدل على كثافة الهجوم، ومحاولة دخول المدينة النبوية من باب الجمعة لقلة العسكر هناك، في حين كان أهالي المدينة النبوية يقومون بحراسة منازلهم متسلحين بالبنادق؛ ومن عجيب ما ذكره عزيز وجود شخص سماه أبو دربالة [٧٩] ؛ لديه دكان كبير ضمن الدكاكين المشرفة على ساحة المناخة، ووصفه بالرجل العصبي ، يضرب بالمطرقة على رأس من لا يستطيع التفاهم معه، فكان يخاف منه ، وذكر أن

---

[٧٧] – لم نجد له تعريف فيما أطلعنا عليه من مؤلفات .

[٧٨] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

[٧٩] – ورد اسمه لدى زيدان . انظر زيدان : الأعمال الكاملة ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ . لم نجد له ترجمة فيما أطلعنا عليه من المؤلفات .

هذا الشخص كان دائم الجلوس على كرسي طويل من الشريط ويمسك في يده منشة لطرد الذباب عن وجهه، وهذا الشخص أبو درباله يملك في دكانه مدافع لا يريد بيعها إلا للحكومة، أو لشخص كبير، وتجرأ وسأله من أين حصل عليها ؟ فأجابه أنه اشتراها من عساكر الشريف الذين استغنى عنهم الشريف بعد خروج فخري باشا من المدينة النبوية ، فكان العسكر يبيعون أسلحتهم، وقد باع كل ما أشتراه منهم من بنادق ومسدسات ورشاشات وذخيرة ؛ ولم يستطع بيع المدافع لأنه لا يستطيع أحد دفع ثمنها ، كما شاهد لديه العديد من الدانات – قذائف المدافع – واخبره أنه مستعد لتسليمها للباشا حتى يعطيها لمن يستطيع الدفاع عن المدينة النبوية ، بل مستعد لتسليمها للباشا بدون مقابل ، وقد سلمها أبو درباله بعد ذلك للباشا مع الذخائر [٨٠] .

لقد أفاض عزيز في تصوير ما عاناه أهل المدينة النبوية في سيرته، فقد عاشها يوماً بيوم وساعةً بساعة، فجاء وصفه متسلسلاً سلساً، واستمر في إعطاء صورة كاملة لتلك الفترة. ومما ذكره أيضاً: اشتداد القصف الذي لا يتوقف إلا في فترات قصيرة ليعود الهجوم ليلاً ونهاراً؛ وكان يرى القذائف أو القنابل وهي تنطلق ملتهبة في اتجاهين العوالي وما وراء باب الجمعة. ولشدة القصف أقفلت الدكاكين التي تبيع المواد الاستهلاكية، وشبه المدينة النبوية في تلك الفترة كأنها مدينة أشباح، لا يمشي في طرقاتها وأزقتها إلا الأطفال الذين يسمح لهم أهاليهم باللعب في الزقاق قبيل الظهر، والأمهات والدادات يراقبن الأطفال من نوافذ الرواشين خوفاً من ابتعادهم عن المنزل، وإذا تأخروا في العودة إلى المنزل تلاحقهم صيحات الآباء والكبار بضرورة العودة، أما بعد الظهر فالجميع في المنازل إلى أن يهبط الليل؛ والكل يعلم أن الرجال وراء أبواب المنازل في أيديهم البنادق مستعدين للدفاع عن أنفسهم فيما إذا نجح الهجوم. وقال: أن لا شيء يدعوا للاطمئنان إلا دوي قصف المدافع من جبل سلع، مما يعني أن عبدالمجيد باشا لم ينم، ما دام هناك محاولات للهجوم. وقال: أن المدافعين يستطيعون رؤية المهاجمين بواسطة مناظير مقربة من فوق القلعة[٨١] .

---

[٨٠] – ضياء ، حياتي ، ج ٢ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ ، ١٩٢ – ١٩٧ ، ٢٠٩ .

[٨١] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٩٧ – ١٩٨ ، ٢٠١ .

وأشتد الحال في تلك الفترة وأصبحت الشكوى عامة من الجوع، فلا يوجد شيء يشترى أو يؤكل في الأسواق؛ حتى أنه لا يوجد في منزل عزيز إلا القنيطة واللحم المصبر في صفيحتين أرسلهما زوج أمه الدكتور ضياء، أما غيرهم من الجيران فلا يوجد لديهم حتى خبز الشعير، وكانت وجبة الفطور في منزل عزيز تتكون من خبز القنيطة والشاي المصنوع من ورق الورد الجاف ، لعدم وجود الشاهي في الأسواق، أما السكر فكان سكر يسمى قند ولونه بني. أما الغذاء فكان يعتمد على القنيطة ولحم الصفيحة، وشيء من الطرشي – المخلل – [٨٢].

وفي أحد الأيام يذكر عزيز توقف إطلاق المدافع، وبالرغم من ذلك.. هناك خطر قائم، وهنا ينتقل في حديثه عن تلك الأيام بما كان يدور أيضاً بين النساء، فكأنه يعطينا في سيرته صورةٌ عامة عن كافة أطياف المجتمع في ذلك الوقت وما كان يدور بينهم؛ فمن ذلك قولهن: أن الباشا ينوي تسليم المدينة النبوية إلى الأمير القادم من طرف ابن سعود؛ فالبدو الموجودون في العوالي وقباء وقربان هم تحت إمرته، وبالتالي لا يستطيعون الهجوم لأن الأمير يمنعهم من ذلك؛ ومعنى هذا أن الحرب سوف تنتهي إذا سُلمت المدينة النبوية، وفي المقابل يدور حوار آخر بين أمه وزوجها الدكتور ضياء الذي لديه صلات مع الحامية العسكرية والباشا بحكم منصبه؛ وقد سمعه عزيز يخاطب أمه بقوله: إن الملك علي بن الحسين وعد بإرسال المعاشات للجيش بالطائرة، ولكن لم يحدث، وأن مدينة جدة يمكن أن تسقط خلال أيام، ولا يدري أحد ما مصير الملك علي بن الحسين وكيف تصرف رواتب الجيش التي لم يستلمها منذ ستة أشهر. ومرة أُخرى ينقلنا إلى ما يدور من أحاديث العامة وتساؤلهم إلى متى سيستمر الحصار؟ وهل سينتهي الحصار بدخول البدو المحاصرين للمدينة النبوية ؟ ولكن كيف يدخلون والقذائف لا تزال ترسل كاللهب من فوق جبل سلع ؟ ورميها بهذه

---

[٨٢] – المرجع نفسه والجزء ، ص ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ .

الكثافة يؤكد أن المهاجمين يحاولون الدخول فتمنعهم القذائف؟ ولكن إذا انتصر المهاجمون ودخلوا المدينة النبوية ما الذي سيواجهه الناس منهم؟ ونجد عزيز ينقل حتى الهمسات الدائرة بين النساء والرجال والتي منها: بأن عبد المجيد باشا يرفض التسليم للأمير الذي نصب خيمته في العيون. وتتناقل أنباء عن مقابلة بعض أهل المدينة النبوية للباشا عبد المجيد ونصحوه بالتسليم ؛ ولكن بشروط مرضية تضمن سلامة أهلها الذين يعانون الأمرين من الجوع والمرض في هذا الحصار؛ ولكن الباشا عبد المجيد يصر على عدم التسليم لأنه لايزال يعتقد بأن حكومة الشريف في جدة لم تستسلم، وأنها وعدته بإرسال كفايته من الأموال بالطائرة لدفع رواتب العسكر؛ وهنا يشبه الناس إصرار عبد المجيد باشا بإصرار فخري باشا وتقليده، ولكن هناك فرق بينهما فالأول أخرج أهل المدينة النبوية خوفاً عليهم من الجوع، واحتفظ في مستودعاته بالأرزاق الضرورية لمعيشة العسكر؛ والدليل على ذلك الكثير من القنيطة واللحم الذي وجده الدكتور ضياء في مستودعات الصحة في درب الجنائز، وسلم الكثير مما وجد لعبد المجيد باشا؛ ولكن ماهي إلا أيام قليلة ولن يبقى شيء، فمن أين يأكل أهل المدينة النبوية ؟ فالأسواق لم يبق فيها شيء، والدكاكين مغلقة، والتجار الكبار لا يبيعون ما لديهم إلا بدم القلب؛ ففي مقابل شيء بسيط من المؤن تُدفع المجوهرات والمصوغات، وهذه لا يملكها إلا الأغنياء، أما بقية الناس فيعانون الجوع والمرض نساءً وأطفالاً ولا سبيل للدواء والغذاء .[٨٣]

ولما طال الحصار على أهل المدينة النبوية، وفي أحد مجالس الرجال حيث كان زوج أم عزيز من ضمنهم سمع بعضهم يقول: إن عبد المجيد باشا مخطئ ويعرض أهلها للجوع والمرض؛ وفي المقابل يسترجعون المخاوف المحتملة بالمذابح إذا تم التسليم ودخل البدو المدينة النبوية والكل يعلم أنهم لا يرحمون؛ وينبري آخر للرد فيقول: أنهم لم يسمعوا أنهم قتلوا أحداً بمكة

[٨٣] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١١ – ٢١٢ .

المشرفة عندما دخلوها لأن ابن سعود نفسه كان السلطان عليهم، ويرد آخر مؤيداً بقوله: أن ولد ابن سعود موجود في العيون، وهؤلاء البدو يستحيل أن يخالفوا أمره، وأن الذين قابلوا عبد المجيد باشا أكدوا له أن الأمير يوافق على تنفيذ جميع الشروط وأهمها فك الحصار، وعدم الاعتداء على أحد من أهل المدينة النبوية، أو على العسكر إلا إذا اعتدى أحد عليهم؛ وبالرغم من كل هذا الكلام المطمئن يرد عليهم عبد المجيد باشا أنه يرى نفسه إذا سلم المدينة النبوية خائناً للأمانة التي في عنقه، وأنه أرسل برقيةً إلى حكومة الشريف في جدة يخبرها وينتظر الرد، ويرد رجلٌ من الجالسين بقوله: إن حكومة الشريف ممكن أن تسلم خلال أيام[٨٤] .

وينقلنا عزيز مرة أُخرى إلى وضع منزلهم وما يوجد به من المؤن فيذكر: أن الحصار أشتد أكثر على الناس، وقل في منزلهم الزاد ولم يبق إلا عشرةً فقط من القنيطة، أما اللحم فلا يزال منه صفيحة ممتلئة، ولكن كيف يكون الوضع إذا أكلوا العشرة الباقية من القنيطة ؟ وهل سيأكلون اللحم فقط ؟ ولكن يأتي الفرج لهم؛ عندما كان يتجول عزيز في الأسواق المقفرة في حي جوه المدينة وباب السلام وعند عودته إلى منزله عبر سوق الخضرة ليصل إلى الساحة، لفت نظره متجراً مفتوحاً وصاحبه يسميه الجميع العم عابدين [٨٥] جالساً وراء منضدة طويلة يسمونها البنك، وحوله صناديق صغيرة موضوعة على أرفف ؛ ومعه شابان أسودان عرف فيما بعد أنهما مملوكان له. وفي إحدى جولات عزيز في الأسواق مر على محل العم عابدين الذي استوقفه وسألهم هل أنت ولد الدكتور ضياء ؟ فرد عليه بالإيجاب، عندها أمره بالاقتراب منه وأمر أحد المملوكين بأن يحضر قُفة – زنبيل من الخصف كبير– مملوءة وكما جرت العادة يحمل مثل هذه الأشياء الحمالين من الصبية الكبار الذين يكونون في خدمة المتسوقين. وأمر العم عابدين أحد مماليكه بحمل القُفة التي كانت

---

[٨٤] – ضياء : حياتي ، ج ٢، ص ٢١٢ .

[٨٥] – ورد اسمه في كتاب زيدان كأحد التجار الذين يشترون بالجملة . انظر زيدان : الأعمال الكاملة ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ . لم نجد له ترجمة فيما أطلعنا عليه من مؤلفات

مملوءةً بالكثير من الأكياس الصغيرة والأوعية الكبيرة والمتوسطة ؛ وأكثر مالفت نظره كيس كبير حمله المملوك الآخر ووضعه على كتف المملوك الذي كان يحمل القُفة على رأسه. وأمره أن يذهب مع عزيز إلى بيته ؛ وقال له: " سلم على أبيك وقل له هذه هدية من صاحبك عابدين بغدادي، وإذا رفض وتغير وجهه قل له: يقول لك عابدين ان النبي قبل الهدية " [٨٦] .

وكان رد الفعل في منزله يشير لمدى الفرح، وخاصةً لدى الدادة التي تعمل في منزلهم ، فالكيس الكبير كان يحتوي على الأرز الذي لم يذوقوا طعمه منذ شهور؛ ولم تخف والدته سرورها بما جلبه معه؛ ولكن شرعت في استجوابه من أين؟ ولماذا ذهب إلى حي جوه المدينة ؟ وكيف عرف هذا الرجل؟ بل كيف أعطاه مثل هذه الأغذية التي يعز وجودها الآن بالمدينة النبوية ؟ في حين انشغلت الدادة بإخراج محتوى القُفة وكم كانت دهشتهما عندما عرضت الدادة قرطاسًا به ورق ناشف ورق البافره – ورق يلف فيه السجائر– وأرتها أيضاً كيس من السكر الأبيض. ويضيف عزيز في معرض وصفه عن فرح أهله بما أحضر لتوضيح بعض الأمور فيقول: إنه كان يعلم أن الورد الجاف كان بديلاً عن الشاي، ويمكن أن يكون بديلاً عن الدخان أيضاً؛ ولكن لف السجائر يحتاج لورق البافره وهذا أنعدم من الأسواق أيضاً؛ ولكن والدته تحتفظ دفتراً منه؛ للف الورد الجاف ليدخنه عمه الدكتور ضياء، وذكر أنه خفف منه كثيراً. وشارك الجميع الفرح بما أحضره بمن فيهم زوجة قائد القطار محمد علي هوندجي التي كانت تسكن في الطابق الأعلى من منزلهم بعد سفر زوجها بالقطار لإحضار المؤن من ينبع ولكنه توقف القطار في محطة هدية [٨٧] لنفاذ الفحم ولم يعد، وأيضاً من ضمن

---

[٨٦] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٢١٢ – ٢١٣ .

[٨٧] – هدية : تبعد عن المدينة النبوية بـ ١٦٩ كم شمالاً ، وبها محطة لسكة حديد الحجاز . البلادي : معجم معالم الحجاز . ج ٩ ، ص ١٦٩ .

المستبشرين بهذه المؤن زوجة ابن قائد القطار التي سماها مريم. وتدخلت في الحديث كما تعود عزيز مناداتها بالخالة هوندجة قائلةً: أنها تعرف العم عابدين البغدادي وتساءلت كيف هان عليه أن يعطي كل هذا الخير وهو معروفٌ بالبخل[٨٨].

وفي أواخر أيام الحصار مرض عم عزيز الدكتور ضياء بمرض سماه الجنبة أو ذات الجنب – التهاب الرئة – وهذا المرض أُصيب به أيضاً قبل خروج فخري باشا من المدينة النبوية، وبالرغم من ذلك لم ينقطع عن العمل إلا عندما أُصيب بالهزال وكذلك أُصيبت أخته بالهزال أيضاً، وفي هذه الأيام ولد أخوه شاكر الذي كان رضيعاً عندما سُلمت المدينة النبوية لولد ابن سعود[٨٩] .

ويعود مرة أُخرى عزيز للحديث عن أحاديث تسليم المدينة النبوية فيقول: أنه سمع عمه الدكتور ضياء يذكر أن عبد المجيد باشا وافق على التسليم أخيراً، لأن حكومة الشريف في جدة قد انتهت منذ شهور؛ ولكنه لا يزال متردداً، ويعود سبب ذلك التردد لخوفه من الغطغط الذين يمكن أن ينتقموا منه إذا دخلوها رغم وجود الأمير ولد ابن سعود لتسلمها؛ وأخيراً يخبر عمه أحد زملائه في العمل بأنه تم الاتفاق بين عبدالمجيد باشا والأمير ولد ابن سعود؛ وأنهما سيدخلان من باب الشامي فيراهما الجميع بعد صلاة العصر، ثم رفع الرجل يده حمداً لله على ذلك[٩٠] .

وينقلنا عزيز في سيرته إلى مشهد دخول الأمير محمد المدينة النبوية، ومن جملة وصفه قوله: أن الأطفال منذ الصباح حجزوا لهم موقعٌ يستطيعون فيه رؤية القادم؛ فقد علموا من أهاليهم أن دخول الأمير سيكون بعد العصر، لذا تخيروا موقع عتبة السلطانية

---

[٨٨] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

[٨٩] – المرجع نفسه والجزء ، ص ٢١٤ .

[٩٠] – المرجع نفسه والجزء والصفحة .

المرتفعة ليقفوا عليها منذ الصباح، ومن هناك شاهدوا عبد المجيد باشا يهبط من قلعة سلع ويدخل مع الأمير من باب الشامي، ثم يمشيان معاً ليدخلا المدينة النبوية سوياً. ولمعرفة المزيد تفصيلا قوله: كان هناك عددٌ من الجنود ومعهم الضابط منصور أفندي منتشرين في المنطقة يمنعون الناس من التزاحم في الطريق، الأمر الذي يدل فعلاً على قدوم الباشا والأمير، وتسارعت عندها حركة الجنود، وجاءت مجموعةٌ أُخرى لم يتبين من أي الجانبين هم فقال: ربما من جنود الباشا داخلين في ثلاثة أو أربعة صفوف من باب الشامي وعلى أكتافهم أسلحتهم، بعدها ظهر الباشا في بزته العسكرية راكباً على حصان وإلى جانبه الأمير الشاب لابساً عباءته وعلى رأسه شماغه وعقاله وراكباً هو الآخر حصاناً؛ وخلفهما عددٌ كبيرٌ من الفرسان والمشاة [٩١] ؛ عندها أدرك الجميع أن هذا الجمع من الفرسان والرجال هم رجال الأمير، وتبعهم فصيل من الجنود. ومر الموكب أمامهم إلى الباب الذي يفضي إلى ساحة المناخة. وسمعوا همسات العامة تقول: " الحمد لله ربنا يختار لنا الخير المهم خلصنا من الحصار ومن الخوف ليل نهار"[٩٢].

وتعجب عزيز أشد العجب وهو عائدٌ إلى منزله؛ عندما رأى الدكاكين التي كانت مقفلة طوال شهور فتحت وأصحابها يبيعون ما يطلبه الناس منهم وهم قلة ، فهم يشترون القليل بما يملكونه من نقود لا يملكون سواها. وقال: إنه لم يستطع أن يفهم لماذا كانوا يغلقون دكاكينهم مادام فيها ما يباع للناس [٩٣] ؟.

---

[٩١] – ما ذكره عزيز ضياء يوافق ما ذكره غيره ممن عاصر الحدث . انظر مرشد : طيبة وذكريات الأحبة ، ج ١ ، ص ٤٠ ، ١٨٢

[٩٢] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

[٩٣] – المرجع نفسه والجزء والصفحة .

أحوال المدينة النبوية بعد ضمها لحكم ابن سعود:

حكى عزيز العجب من الرخاء الذي عم المدينة النبوية في تلك الفترة، فوالدته كانت تخشى قلة المال لتدبير أمور المنزل خاصة أن زوجها الدكتور ضياء لا يعرف مقدار الراتب الذي سيعطى له في حكومة ابن سعود ، فحكومة الأشراف السابقة سقطت وفي ذمتها للموظفين رواتب أكثر من ثمانية أو تسعة شهور، والتساؤل أيضاً هل ستكون بانتظام ؟ وترد والدته على نفسها بأنه حتى لو كان قليلاً ويصرف بانتظام يرتبون أمورهم عليه. ويبدو أن كل هذه المخاوف ذهبت أدراج الرياح، إذ أصبح العيش رخيصاً جداً ، فمجيدي واحد يكفي لمستلزمات المنزل في اليوم ؛ وذكر عزيز أنه وقع على عاتقه التسوق ، فيحمل زنبيل المقاضي الصغير ومعه مجيدي واحد لشراء اللوازم الغذائية من سوق الخضار القريب من منزلهم ، فأسرته في ذلك الوقت أصبحت تتكون من الأم وزوجها الدكتور ضياء ودادتين وخادم إلى جانب أخته وأخيه الصغير. ويذكر أنه عندما يذهب إلى سوق الخضار يكرمه الخضار بكميةٍ من الورد والدوش والنعناع وأحياناً بكوزٍ من الطلح، وكل ما يأخذه من المجيدي ثلاثة قروشٍ وقال : إن المجيدي يساوي عشرين قرشاً، وعندما يذهب للجزار بقرب محل الخضار يرفع صوته ليسمعه الجزاز بأن يعطيه أحسن قطعةٍ من اللحم. ويحدد الوزن الذي كان سائداً حينئذ بأنه الأقة، فيأخذ أقتين من اللحم بعشرة قروش، ثم يذهب إلى البقالة لشراء الأمور الأخرى، ويعود إلى المنزل ويبقى معه من المجيدي ثلاثة أو أربعة قروش[٩٤]. وما ذكره عزيز عن رخص الأسعار في ذلك الوقت حكاه غير واحدٍ ممن عاصر تلك الفترة . كما كان البدو يمدون أسواق المدينة النبوية بما تحتاجه من السمن والعسل والجبن وغيره وهم ذو أمانة وثقة عند أهلها[٩٥].

وبعد استقرار الوضع في المدينة النبوية حدث تغير في حياة عزيز، وعليه إكمال تعليمه ، فاقترح زوج أمه أن يذهب إلى مكة المشرفة لتعلم الطب، ليتخرج بعد

---

[٩٤] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٢١٧ – ٢١٨ . وانظر أيضاً مرشد : طيبة وذكريات الأحبة، ج ١ ، ص ١٩٦ .

[٩٥] – مرشد : طيبة وذكريات الأحبة ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

ذلك طبيباً، ويبدو أن الفكرة راقت له، وأخذ يستعد لذلك، ولكن أمامه عقبتان: الأولى قبوله في مدرسة الطب، ولكن صغر سنه ربما يقف حائلاً، فقد كان لا يتجاوز الحادية عشر من عمره ، ولكن تجاوز هذه العقبة بعد توسط زوج أمه حتى يُقبل. أما العقبة الثانية: فهي اختبار القبول؛ لذا عليه مراجعة دروسه السابقة بعد أن انقطع عن الدراسة طيلة فترة حصار المدينة النبوية من قبل جيش ابن سعود. وتم اجتياز هذه العقبة أيضاً بنجاحه في امتحان القبول، وكان من ضمن المقبولين الذين يكبرونه في السن كثيراً، ولم يكن في عمره إلا شخص واحد سماه عبد الحميد أبو طاهر، وانطلق الجميع نحو مكة المشرفة بعد أن أعدت له والدته ما يحتاج إليه خلال رحلته تلك، كما أمده زوج أمه بمبلغٍ من المال ليعينه إلى أن يستقر في المدرسة [٩٦] .

وعندما عاد بعد سنة ونيف إلى المدينة النبوية قال: إنها بدأت تتغير في بعض أسواقها، والحرم النبوي، حيث شاهد عددا ممن وكُل إليهم منع الاقتراب من باب الحجرة الشريفة، وانتشار الداعين إلى الصلاة في الأسواق وفي يد كل واحدٍ منهم عصا يخيف بها الذين يتأخرون في متاجرهم. بالرغم أن أهل المدينة النبوية كانوا فيما سبق يذهبون من تلقاء أنفسهم إلى الصلاة في المسجد النبوي بمجرد سماعهم الآذان. وسرعان ما ترك المدينة النبوية مرة أُخرى بسبب تعيين زوج أمه الدكتور ضياء رئيساً للصيادلة بمكة المشرفة، ومكث بمكة المشرفة فترة من الزمن عمل خلالها في الصحة ثم في مديرية الأمن العام؛ وبعدها تم نقله إلى المدينة النبوي؛ فسافر إليها راكباً سيارة البريد، فوصل إلى المناخة وهناك قضى ليلته إحدى القهاوي، وباشر عمله ولكن بعد فترة أحس بضرورة العودة إلى مكة المشرفة لأنه كما قال: رأى قسوة الأمير في معاقبة الدائنين وهو لا يطيق ذلك، وبدأ يحصي ما معه من نقود لكي يرحل، فقد وجد معه مبلغاً جيداً إذا أراد السفر، فقد كانت أمه وزوجها يمدانه بالمال على فترات لتأخر صرف الرواتب في ذلك

---

[٩٦] – ضياء: حياتي، ج ٢ ، ص ٢١٩– ٢٢٤، ٣٥. وقد حكى العياشي في القرن (١١ هـ/١٧ م) عن دورهم هذا. العياشي : الرحلة العياشية الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق محمد أمحزون . ص ٢٢٣ ، ٢٢٥ .

الوقت، ويذكر أنه في تلك الفترة كان من يريد السفر من المدينة النبوية لا بد له من الحصول على أذنٍ من الأمير بالسفر وإلا ستعلم شرطة باب المدينة الأمير عمن لا يحمل تصريح ؛ وتم بعد ذلك نقله إلى مكة المشرفة ليعين في السلك العسكري برتبة مفوض ثالث[٩٧] .

لم يتحدث عزيز كثيرًا عن المدينة النبوية في مرحلة عمله إلا القليل، وأن المعلومات الغزيرة في سيرته إنما كانت في فترة طفولته وقبل ذهابه إلى مدرسة التمريض بمكة المشرفة، لذا لم نتوقف طويلاً عند هذه الفترة، اعتماداً على ما جاء في سيرته من معلومات.

المحور الثالث: الناحية الاجتماعية بالمدينة النبوية كما وردت في سيرة عزيز ضياء:

وجد بالمدينة النبوية مجتمعٌ متكاملٌ، امتزج فيه جميع أطيافه وتزاوجوا، وكونوا مجتمعًا مترابطًا، ولا يساويها في ذلك إلا مكة المشرفة، فمن الجنسيات الإسلامية الموجودة بها في أوائل القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي– الشاميين وهم كُثر، والأتراك والهنود والمصريين والمغاربة، بالإضافة إلى قلة من ذرية الأنصار، والعديد من السادة الأشراف الحسينيون والحسنيون[٩٨] ، كما لحق للسكن بها طائفة من البخارية بعد هروبهم من أوطانهم لأسباب مختلفة، وقد كان بالمدينة النبوية من مسلمي الروس عدد من مختلف القوميات؛ فقد قابل دولتشين[٩٩]

---

[٩٧] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ – ٣٠٣ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ – ٣٣٠ ، ٤٠ .

[٩٨] – انظر بإفاضة كتاب الأنصاري، عبد الرحمن (ت ١١٩٧ هـ / ١٧٨٣ م) : تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ، تحقيق محمد العمروسي المطوي، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٧٠ م ؛ رفعت ، إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاه بمئات الصور الشمسية ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت . ج ١ ، ص ٤٣٩ .

[٩٩] – عبد العزيز دولتشين: ولد عام (١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م) وينتمي إلى عائلة مسلمة تترية من رعايا روسيا . عمل في الجيش كضابط وترقى في المناصب بحكم ما يتمتع به من معرفة العديد من اللغات . اختير للقيام برحلة للحج للموقوف على أحوال رعايا روسيا في مكة المشرفة والمدينة النبوية ، وكتب تقريره ورفعه للحكومة الروسيا . كان على قيد الحياة إلى عام (١٣٣٨ هـ / ١٩١٩ م) . ريزفان، يفيم : الحج قبل

عندما قدم للحج عام (١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م) ما يقرب من مائة شخص، ذكر أن بعضهم شيوخ جاؤوا ليموتوا بالمدينة النبوية، وآخرون هاجروا إليها لظروف معيشية مختلفة، فمنهم من جاء لتلقي العلم ، وبعضهم للتجارة، كما حدد هو الآخر الجنسيات الإسلامية التي استوطنتها وأنهم يؤلفون نصف سكانها فذكر منهم: الأتراك الذين استقروا بها بحكم تبعيتها للدولة العثمانية، والجزائريون والتونسيون والمصريون والسرتيون[١٠٠]، والتتر والقرغيزيون والقازانيون وغيرهم وتحدث عن التتر قائلاً: نزح أغلبهم من روسيا بعد الاضطرابات التي نشبت بينهم عام (١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م) وبعضهم انصرف لطلب العلم وتزوج واستقر بالمدينة النبوية. وتكسب هذه الجالية رزقها من الحجاج من أبناء موطنهم، فيقومون باستقبال القوافل، وينزلون الحجاج في منازلهم، ويقدمون لهم الطعام، وربما يقومون بحج البدل لمن لم يستطع الحج من مواطنيهم وهؤلاء لم تنقطع صلتهم بموطنهم فهم يذهبون إلى روسيا وتركمانية لزيارة أقربائهم أو لجمع الصدقات، التي منها يبنون المساجد والمدارس والأوقاف التي تخدم مواطنيهم وغيرهم من سكان المدينة النبوية [١٠١].

إن تقديم الخدمات لحجاج روسيا المسلمين بكافة مناطقهم أكدها عزيز في سيرته، فقد ذكر أن جده أحمد صفا أفندي كان مؤمناً راسخ الإيمان، يعرف اللغة العربية، ويحفظ أحاديث البخاري ومسلم، وقرأ تفسير القرآن للبيضاوي والكشاف

مئة عام الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي ١٨٩٨ – ١٨٩٩ م الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلى مكة رواية وصفية بديعة للتأريخ والجغرافيا والسياسة والاجتماع والإدارة . بيروت – لبنان ، دار التقريب بين المذاهب ، ط ٣ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م . ص ٣٠ – ٣٣ .

[١٠٠] – السرت: هم القسم المتحضر من الأوزبكيين والكازاخيين ويدخل أحياناً معهم الطاجيكيين، وهم منتشرون في أنحاء طشقند وفرغانة وخوارزم. ريزفان: الحج قبل مئة سنة. ص ١٠٤، هامش ٢٢؛ ضياء: حياتي، ج ١، ص٢٧٢ – ٢٧٣.

[١٠١] – ريزفان: الحج قبل مئة سنة ، ص ٨٤ – ٨٦ ، ٨٧ ، ١٦٤ – ١٦٥؛ الخياري، أحمد ياسين أحمد: تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ، تعليق وإيضاح وإضافة وتخريج عبيد الله محمد أمين كردي، جدة ، دار العلم ، ط ٤ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م . ص ١٦٠.

للزمخشري، وهو أستاذ في اللغة الفارسية ومنه تعلمها جميع أسرته، إلى جانب اللغة التركية بلهجة التركمان ولهجة اسطامبول، بل حتى أم عزيز تعرفها، ورغم معرفة الجد لهذه اللغات يصعب عليه فهم اللهجات العامية والسورية على الخصوص، فهو عندما لا يفهمها يطلب من أم عزيز أن تعيد عليه ما قالوه . ومع غزارة علم جد عزيز أمتهن مهنة صناعة الأختام، وكان أيضاً شيخاً للطريقة النقشبندية، وشيخاً للحجاج من القازاق والتركمان الذين يفدون إلى المدينة النبوية سنوياً بعد حجهم فيستضيفهم في منزله، وكان كل من يعرف جد عزيز يقدره ولا يناديه إلا بشيخ أفندي[١٠٢].

وللتدليل على ذهاب البعض لجمع التبرعات من مسلمي الروس؛ ذهاب زاهد والد عزيز إلى هناك لجمع التبرعات من مسلمي الروس لبناء الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ولكنه لم يعُد لاندلاع الحرب وإغلاق الطرق[١٠٣]، وقد تحمست الدولة العثمانية لهذا المشروع الذي سيخدم عموم طلبة العلم في العالم الإسلامية ، ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى حال دون ذلك؛ ومنهم من تطوع من تلقاء نفسه للعمل في صيانة خط السكة الحديد وقت نشوب الحرب – العظمى – العالمية الأولى[١٠٤].

وبرغم التنوع البشري الذي شاهدته المدينة في ذلك الوقت، نجد أن أغلب أهلها يعرف بعضهم بعضا، بل يشاركون الأهل في التربية إذا خالف الصبية قواعد السلوك الاجتماعية بالنصح أو رفع الأمر لولي أمر الصبي ليتولى تأديبه، بل تتدخل أحياناً الشفاعات من قبل البعض لعدم إنزال العقاب على مسيء السلوك[١٠٥]

---

[١٠٢] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٣٩ ، ٤٧ ، ٥١ – ٥٢ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ١٢٧ ، ١٧٣، ٢٧١، ٣٠٨ .

[١٠٣] – المرجع نفسه والجزء ، ص ٢٠ .

[١٠٤] – حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ٤٠ ؛ بدر : التاريخ الشامل ، ج ٣ ، ص ٣٢ – ٣٣ ؛ ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢٠

[١٠٥] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٤٠ – ٤١ ، ٤٣ .

أحياء المدينة النبوية وأزقتها كما جاءت في سيرة عزيز ضياء:

تحدث عزيز كثيرًا عن الزقاق الذي كان يسكن به أول الأمر وهو زقاق القُفل بحي الساحة الذي يتفرع منه أزقة كثيرة؛ إذ من يريد الذهاب إلى المسجد النبوي من الزقاق عليه الاتجاه إلى الشارع الرئيسي بحي الساحة حيث يتقاطع الزقاق مع زقاق الحبس. ويوجد عددٌ من الدكاكين عند مدخل زقاق القُفل، وهذا الزقاق ضيق فلا يسمح بمرور أكثر من شخصين معاً، وبيوته متقاربة جداً لدرجة سماع من يتحدث في البيت المقابل، ويبدو أن اسمه أخذ من وصف نهايته لأنه لا مخرج له، وعندما يخيم الليل بستره، يتعذر على سالك الزقاق تلمس طريقه أو يتلمس طريقه من الإنارة الخافتة الآتية من مجالس المنازل على الجانبين لعدم وجود إنارة عامة به، ومن أراد الخروج ليلاً عليه حمل مشعل ينير له الطريق، ولكن أصبح ينار بفوانيس البلدية في عهد الحكومة الهاشمية[١٠٦]. ومن ضمن ما ذكره عزيز من أزقة المدينة النبوية زقاق الزرندي والذي لا يبعد عن المسجد النبوي، إذ كان لجد عزيز دكاكين هناك لا تبعد عن باب السلام إلا بضع خطوات. ومما ذكره أيضاً قُرب الحراج المميز بشجرة نبق – سدر – كبيرة من حي الساحة، كما ذكر القشلة التي تقع أمام التكية المصرية. وفي حي جوه المدينة حيث يوجد صفين من الدكاكين المتقابلة إلى باب السلام، وحوش الجمَال فدكاكينه تبيع لوازم الأكل والشرب، وأشار إلى منطقة سماها دار الضيافة بالقرب من كهرباء الحرم النبوي ومدير الكهرباء سماه خليل أفندي، ومن الأحياء حي العنبرية، ومن الأزقة زقاق الطوالة الذي لا يبعُد عن زقاق القُفل إلا بمسافة قصيرة ومنازله تبعد عن بعضها بمسافة مترين أو ثلاثة. وذكر أيضاً السلطانية عند باب الشامي والتي تميزت منازلها بوجود حدائق جميلة فسيحة زرع بها الأشجار والأزهار النادرة، ووضع في هذه الحدائق المقاعد حول الأزهار وتحت الأشجار؛ وأشار إلى الحماطة التي بها العديد من البيوت المطلة على ساحة

---

[١٠٦] – المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ٢٠٤ ، ٣١٩ .؛ ج ٢ ، ٦٨.

المناخة وباب الشامي وتحتها سقف لمجموعة من الدكاكين التي تفتح على المناخة وبها دكان للخردوات يوجد به كل ما يحتاجه الناس من لوازم صيانة أقفال المنازل أو صنابير المياه أو أسياخ تسليك المراحيض، وأيضاً ما يحتاجه مالك البندقية إن طرأ عليها أي خلل. وسمى العوالي، ومن الأزقة زقاق الحبس الذي يفصله عن زقاق القُفل برحة – ساحة صغيرة– وأشار إلى ما يسمى بالبلدان – وهي المزارع – وتكثر في العوالي وقباء والعيون، والطريق إليها من باب قباء؛ أما العيون فالوصول إليها يكون من باب الشامي. ومن الأحياء القُبة، ومن الأزقة زقاق الطيار الواقع قبل السيح، ومنها أيضاً مقعد بني حسين وبه العديد من الأزقة والمنعطفات المظلمة والمسقوفة أحياناً، والمضيئة بما يشبه فتحات بين كل مسافة وأخرى، وأمام كل منزل عتبة من الحجارة السوداء. فمن يريد الذهاب إليه لأول مرة لا بد له من دليل، إذ يجتاز سوق حي جوه المدينة حيث يوجد في نهايته مخرجان أحدهما ينتهى عند باب المصري ثم منه إلى سوق الحبابة – باعة الحبوب – ثم إلى المناخة. أما المخرج الآخر فتكثر فيه المنعطفات والأزقة الصغيرة الضيقة، والتي بعضها مسقوف ومظلم، وما ينير الطريق ضوء ينساب بضعف إليه عند نهايته. وذكر قباء وقال: أن الطريق إليها يكون من باب الشامي. ومن ضمن الأحياء حارة الأغوات والتي تقع بالقرب من المسجد النبوي. وتحدث عن المناخة فوصفها: بأنها ساحة كبيرة يوجد بها العديد من الحمير للتأجير، كما يوجد بها عربات منها ما يسمى الفيتون يستأجرها من أراد الذهاب إلى أماكن بعيدة مثل البساتين والمزارع في قبا وقربان وخارج باب الأستاسيون للذهاب إلى أبيار علي. وذكر ما سماه المصرع وهي بلاد المدني عند مشهد سيدنا حمزة رضي الله عنه [١٠٧].

[١٠٧] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ١٨١ – ١٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٢، ٣٠٠ ، ٣٢٥ ؛ ج ٢ ، ص ١٠ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩١ – ٩٣ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٦٥ – ١٦٦ .

وما ذكره عزيز أثناء سرده يوافق ما أورده مؤرخي المدينة النبوية عن الأحياء وتفريعاتها والأزقة ومبدأها ومنتهاها بتفصيلات أكثر[١٠٨]. وذكر مستشفى المواساة وحدد موقعها في مواجهة برحة باب السلام[١٠٩]

وصف منازل المدينة النبوية كما وصفها عزيز ضياء:

تنقل عزيز في عدد من المنازل، ووصف بعضها، فقد وصف منزله في زقاق القُفل، وهو نموذج للمنازل التي تقع في الأزقة القريبة من الحرم النبوي. فمن وصفه: وجود دكة صغيرة خارج المنزل بالقرب من باب المنزل مبنية من الحجر الأسود للجلوس عليها، أما باب منزله فلا يبعد عن باب المنزل المقابل إلا بمتر وبضع سنتيمترات، وبعد الولوج من باب المنزل الذي يغلق من الداخل بمزلاج حديد، ويصادف الداخل دهليز –ممر– ينزل إليه بدرجتين أو أكثر وهو مرصوف بالحجر؛ ولا يوجد به أي إضاءة خارجية فيعتمد في إنارته على سكان المنزل فيستخدمون مسرجة صغيرة عبارة عن طبق من الصفيح فيه كمية من الزيت وفتيلة تشعَل لتضيء الدهليز، وضوءها لا يتعدى المتر أو المترين، وبعده يوجد مقعد صغير لاستقبال الزائرين من الأصدقاء والجيران من الرجال، يليه الديوان الذي ينار ليلاً بلمبة معلقةٍ على الجدار وتُفرش أرضه بالحجر؛ ويصعد إلى الديوان بعدة درجات، ويميز الديون بناء دكة مرتفعة في صدره، وينير الديوان ضوء النهار الآتي من الجلاء. فالجلاء القاسم المشترك في البناء المعماري لجميع منازل المدينة النبوية ومهمته الإنارة والتهوية والتبريد، إذ يبدأ من سطح المنزل نزولاً إلى الأسفل، ويطل الجلاء على القاعة الرئيسية في المنزل . ويوجد في الديوان جزء يسمى حنية وبها زير يوضع به الماء وبعض أواني الطبخ – عبارة عن غرفة تخديم – وخارج الديوان حنفية ماء للوضوء وغسل اليدين، ويتم تصريف المياه عن طريق مصرف مائي خارج الديوان يسمى بالوعة ؛ ويبدو أن هذه الحنفية خارجية

---

[١٠٨] – انظر بتوسع الجاسر ، حمد : رسائل في تاريخ المدينة ، الرياض ، دار اليمامة ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م . ص ٣٥ – ٥٦ ؛ الخياري : تاريخ معالم المدينة ، ص ٢٣٧ – ٢٥١ ؛ الخياري : الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة ، ص ٢٩ – ١٠٠ . على سبيل المثال .

[١٠٩] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ؛ ذكرها قبل ذلك علي موسى ، انظر الجاسر : رسائل في تاريخ المدينة . ص ٤٠ .

تتصب هناك، لأنها نهبت مع ما نهب من منزلهم قبل عودتهم للمدينة النبوية، والتي أعيد بيعها في الحراج بثمنٍ بخس كما قيل لهم [١١٠].

وفي الطابق الثاني الذي يصعد إليه عبر سلالم حيث يوجد الحمام لقضاء الحاجة، وهناك في الطابق الثاني توجد المجالس التي تستخدم في فترة الشتاء، وتطل المجالس على الزقاق بنوافذ وضع عليها ما يعرف بالشيش – شرائح من الخشب تسمى قلاليب يستطيع من بالداخل رؤية من بالخارج بدون أن يُرى– ويوجد جزء في مؤخرة المنزل به غرفة أو عدة غرف يسمى المؤخرة التي تستعمل لوضع الأثاث الزائد والكتب، ويقع المطبخ في الدور الثاني بجوار المجالس، ويوجد في أعلى جدار المطبخ نافذة صغيرة جداً لتسريب الدخان أو للتهوية. وينتهي المنزل بسطح يصعد إليه بسلالم ويستخدم السطح للنوم زمن الحر [١١١].

أما منزله الآخر الذي أنتقل إليه بعد زواج أمه من الدكتور ضياء ؛ فكان في زقاق الطوالة، ومنه إلى باب المجيدي عبر سوق الخضرة ومنه يتم الانعطاف يساراً إلى باب الرحمة والسير مع جدار المسجد النبوي وينعطف بعدها إلى باب المجيدي. وأول ما لفت نظر عزيز في بيته الجديد أن سقف الغرف مبطن بالخشب بحيث لا تظهر جذوع النخل التي يتكون منها السقف في أغلب منازل المدينة، وأيضاً يبدأ البيت بالدهليز وبه دكة للجلوس، ويتكون من دورين، ويضاء الدور العلوي بوجود لمبات معلقة على الجدار في كل غرفة، كما يوجد به ديوان. وتنوعت بيوت المدينة النبوية فمنها القديمة التي لا تختلف في تفاصيلها المعمارية عن بيت عزيز في زقاق القُفل، ومنها التي بنيت بعد ذلك وهي متوسطة بين القديمة والتي بنيت في المناطق مثل مقعد بني حسين ومثاله البيت الذي سكنه عزيز، وكانت أمام منازل ذلك الزقاق

---

[١١٠] – ضياء : حياتي، ج ١، ١٧١– ١٧٢ ، ١٧٤ – ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، ٢٠٤، ٢١٧، ٢٥١ – ٢٥٢ ، ٢٦٩ .

[١١١] – المرجع نفسه والجزء ، ص١٩١– ١٩٢، ١٩٤– ١٩٥، ٢١٣، ٢١٥– ٢١٦، ٢١٨، ٢٥٧، ٢٧٢، ٢٩٨ .

رحبة صغيرة تُرش عادة بالماء لتخفف من تصاعد الغبار. أما تفصيلات منزله الذي نعته بأنه منزل ملوكي، فيتكون من ثلاثة طوابق، وكل طابق يتكون من عدة غُرف بها رواشين ، والطابق الثاني به المجالس والمطبخ. وبه بستان وبركة ماء وقاعة كبيرة وديوان تطل عليه من الطابق الثاني نوافذ متعددة ومقعدين ، وكما في جميع منازل المدينة النبوية يوجد به جلاء: وهو واسع يمتد من الأسفل إلى السطح، ومهمته دخول الهواء إلى الطابق الأول والثاني عبر نوافذ ، ويمكن غلق الجلاء لمنع دخول الأمطار والغبار والعصافير والحمام إلى القاعة أو المجالس. ودهليز واسع في صدره دكة طويلة عريضة وأرضه مفروشة بالمرمر الأبيض ، وبه مرحاض. ويفتح الدهليز على باب يؤدي إلى البستان أو الحديقة، وجميع أرضها مفروشة بالمرمر، والحديقة منسقة بأحواض مزروعة بالأزهار والأشجار، ويسقى كل حوض بماسورة متصلة بالبركة التي يتدفق الماء منها إلى الأحواض، وتزود البركة بالماء من بئر في أحد أركان البستان، ووضع على البئر طرمبة يدوية، تشغل كل صباح لملء البركة بالماء، وبالحديقة مقاعد مصنوعة من الخيزران، ويطل على الحديقة منور أحد الجيران. وعندما انتقل إلى منزل آخر في حي الساحة لم يزد على أنه بيت فخم ويتكون من طابقين، ومن جيرانه بيت السيد هاشم وبيت الشريف جدوع[١١٢].

وما ذكره عزيز عن وصف المنازل في المدينة النبوية ، أورده بعض مؤرخيها بتفصيلات أكثر دقة وبمسميات التقسيمات المعمارية[١١٣].

---

[١١٢] – ضياء : حياتي ، ج ١ ص ٣٦ ؛ ج ٢ ، ص ١١ ، ١٩ ، ٢١ ، ٤٣ ، ٥٧ – ٨٥ ، ٦٩، ٨٠ ، ٨٣ – ٨٥ ، ٩٣ ، ١٠٠ – ١٠٢ ، ١١٨ ، ١٣٠ .

[١١٣] – الخياري : الحياة الاجتماعية ، ٢١٣ ؛ عيسى ، عبد الرزاق عبد الرزاق : دراسات ورسائل في تاريخ المدينة المنورة . القاهرة ، دار القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٩ م . ص ١٦٧ .

الأحوال الاجتماعية بالمدينة النبوية كما ذكرها عزيز ضياء:

التكافل الاجتماعي:

يبرز التكافل الاجتماعي في حرص أهل المدينة النبوية على مساعدة الصبية الصغار لكسب عيشهم واعتبارهم أعضاءً نافعة في المجتمع، وذلك من خلال ما ذكره عزيز من وجود عددٍ من الصبية الذين يحملون مشتريات المتسوق إلى منازل المشتري، ويعطى بعدها الصبي أجرة عمله[١١٤] .

المجتمع النسائي:

لالتصاق عزيز في صغره بأمه فقد أطلع على اجتماعات النساء التي نجدها في سيرته ، فقد كان يحضر مجالسهن مع والدته ؛ فمن ذلك قوله: إن والدته أخبرته عندما كانت جدته أم أمه على قيد الحياة تتصدر أحد أركان الديوان، في غير وجود الجد وتشرب شيشة الحمى الذي كان يباع في دكاكين المدينة النبوية؛ فقد كانت سيدة مجتمع تستقبل الجيران ونساء العوائل الكبيرة في القاعة أو الديوان منذ أول ليلة يغادر فيها الجد المدينة النبوية إلى اسطنبول، ومنها إلى بلاد التركمان . فتستعد الجدة لهن بعددٍ من الشيش المفضضة والحمي العجمي والكيزون – نوع من أنواع الحمي– وتقضى السهرة بلعبة الشيش والبشيس؛ ويقوم بالتخديم على الضيوف فتيات المنزل مع من في سنهن من بنات الجيران بتقديم الشاهي الأحمر والأخضر والسحلب المجلوب من اسطنبول فكل ما يأتي من هناك يعتبر ميزة لمن لديه . وقبله المرور على الضيفات بمجمرة العود ؛ وقبل مجيء الضيفات توضع مبخرة في الدهليز بأعواد العود فينتشر أريجها في مدخل البيت قبل وصول الضيفات. وتضاء القاعة بقمرية: وهي "مصباح من النيكل يملئ بالكيروسين، وفي جوفه تحت وعاء الكيروسين وعلى رأسه فتيلة عريضة ، وجهاز يُدار بالزنبرك " كما وصفها؛ وتستمر السهرة إلى ما بعد صلاة العشاء بثلاث ساعات ينصرفن بعدها إلى منازلهن[١١٥] .

---

[١١٤] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

[١١٥] – المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٤ ، ٢٧٥ – ٢٧٦ ، ٢٥٥ .

ومما ذكره من عادة النساء عندما يردن الحديث مع جارتهن التصفيق من الشباك لتنبيههن بأنها تريد محادثتهن وذلك لقرب المنازل من بعضها وهذه الشبابيك بعضها بها شيش – شبك خشبي – وبعضها لا يوجد لها شيش. ودرجت النساء على تغطية الرأس الدائم داخل المنزل بما يسمى المحرمة ولا يفك إلا ليلاً. وعندما يأتي الجيران من النساء للزيارة يقمن بالتصفيق للإعلان عن حضورهن ؛ فمن عاداتهن في القيلات – تناول الغذاء – الأكل على الأرض. ودرج نساء المدينة النبوية على المباركة لأحد الجيران عند تجديد فرش المنزل، ويبدأ توافدهن للمباركة بعد صلاة المغرب، لذا يضاء الدهليز بلمبة لها فتيلتين ؛ ويتأنق أهل المنزل أحتفالاً بمقدم الضيفات؛ وإذا كانت المنازل متلاصقة جداً نجد أن الضيفات لا يتعبن أنفسهن بلبس الملاءة وإسدال البيشة على الوجه، بل يتلفعن بشراشف فلا يظهر منهن إلا العينين والحاجبين مع تغطية الرأس بمنديل، وعندما يكون هناك صغير في المنزل يداعب ويدلل من قبل الزائرات؛ وتقابل الضيفات بعبارات الترحيب من قبل ربة المنزل بالقول: " أهلاً وسهلاً ومرحبا " فترد الضيفات " المرحَب يسلم". وتحضر من تشرب الشيشة شيشتها معها؛ ويقدم العشاء للضيفات ويسمى تعتيمة؛ والتي تتكون من أنواع من الجبن والزيتون والمربى والشريك أبو السمسم وأطباق من العنب والرمان والرطب وحلوى المشبك. فهذه التعتيمة تكون بديلاً عن العشاء وتقدم للضيوف من الجيران والأهل. وتدعى الضيفات إلى المائدة التي توضع على الأرض بالقول: بسم الله وهي ترادف كلمة أتفضلوا. ومن آداب الجلوس في هكذا أمسيات يتصدر الكبار في السن المجلس؛ أما الأطفال فيجلسوا بالقرب من الباب [١١٦] .

وإذا ألم خوف بإحدى الجارات يمكنها المبيت عند جارتها، ومن سلوكيات النساء الاحتشام عند الكلام مع الرجل الأجنبي، فإذا طرق أجنبي باب المنزل ينادي رافعاً صوته بكلمة " ياهو " فتسدل ربة المنزل على وجهها خمار، وتكتسي بقماش طويل يلف جسدها قبل أن ترد

---

[١١٦] – ضياء: حياتي، ج ١، ص ٥٤، ٢٢١، ٢٤٦، ٢٥٣ – ٢٥٤، ٢٦٧، ٢٦٩– ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٢، ٣٠٤؛ انظر مكونات التعتيمة أيضاً في مرشد: طيبة وذكريات الأحبة، ج ١، ص٣١٠.

عليه. ومن العادات الحسنة للنساء عدم رفع الصوت بالحديث عندما يكون هناك ضيوف رجال عند صاحب المنزل؛ ومن جميل العادات الاجتماعية مساعدة الرجال للنساء اللاتي يحتجن المساعدة. أما المستأجر فيحرص على دفع الإيجار لصاحب الملك في حينه بدون تسويف. ومن عادة احترام الكبير أنه إذا وقف أو دخل إلى مكان يقف الجالس احتراماً له؛ ويخص رب المنزل بالجلوس في صدر المجلس. ومن التكافل الاجتماعي لدى أهل المدينة النبوية استضافة الأقارب الذين يقيمون في مدينة أُخرى في منزلهم عند قدومهم لزيارة المسجد النبوي. ومن سمات الاحترام بين أفراد الأسرة والجيران؛ تلقيب من هي أكبر سناً بلقب "استيته". وينادي بهذا اللقب حتى الرجل من أخونها. وتستخدم النساء في ذلك الوقت عطر البنفسج بالرائحة الجميلة ليتعطرن به. كما اعتاد الجميع لبس القبقاب داخل المنزل[١١٧].

وعند ذهاب النساء إلى المسجد النبوي ومعهن أولادهن في الجهة المخصصة للحريم وتسمى قفص؛ أما الأولاد الذين يرافقون أبائهم فيذهبون إلى حصوة الرجال[١١٨].

ومما وصفه في الأعراس النسائية في ذلك الوقت ما ذكرته له والدته عن حفل زفافها الذي أقيم بالمنزل؛ ووجد بالمدينة النبوية من النساء اللآتي اشتهرن بالغناء تسمى " السنارية " وممن اشتهرن بالضرب على العود "ناجية أسعدية"، ومعهن جواري يتابعن الإيقاع بالطار أو بالطار أبوشناشن؛ وحدثته أيضاً أن جده الشيخ أحمد صفا أفندي كان رجلاً متشدداً ويمانع وجود امرأة تغني، ولكن وافق على وجودها بعد وساطة من الجيران، واستمر الغناء والرقص المسمى "الرجيعي" إلى قرب الصباح؛ ومما يقدم في الأعراس ويستعد به شيش الحمي الغالية الثمن لأنها مكسوة بالفضة ومستوردة من الهند. أما عقد النكاح فيتم بالمسجد النبوي[١١٩].

---

[١١٧] – ضياء: حياتي، ج ١، ص٢٣١ ، ١٨٦، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٦٧.

[١١٨] – المرجع نفسه والجزء ، ٣٠٦ .

[١١٩] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ١٨٥ ، ١٨٧ .

وإكمالاً للحديث عن المجمع النسائي بالمدينة النبوية واللآتي كن يسكن في الأزقة والأحياء القديمة؛ تحدث أيضاً عن مجتمع النساء وخاصة التركيات زوجات الأطباء والضباط ، اللآتي كن يزرن والدته، فمن ذلك: أنهن كن يختلفن في الملابس إذ لم يكن يرتدين المحرمة والمدورة، بل كن حاسرات الرأس تاركين شعورهن منسدلة على أكتافهن، وتكثر بعضهن من شرب الدخان، والقهوة التركي وشرب الشاهي، ويلبسن الخواتم الثمينة، ويتحدثن بالتركية وإن كن يتحدثن العربية قليلاً، ويتمتعن بتعليم جيد[١٢٠].

مجالس الرجال:

لم يتحدث عزيز كثيرًا عن ذلك وما حكاه كان نقلاً لما شاهده في مجلس عمه زوج أمه الدكتور ضياء، فما وصفه عشاء أقامه احتفالا بزيارة أحد الأمراء الأشراف القاطنين بجوار منزلهم في حي مقعد بني حسين بالمدينة النبوية وسماه الأمير ناصر؛ وبما أنه شخصية بارزة فقد روعي في العشاء تنوع الأصناف التي طبخت في المنزل والاستعداد بفرش السفر الطويلة المزخرفة أو المطرزة ووضع على امتدادها الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين، كما أضيئت القاعة بالعديد من اللمبات الكبيرة متعددة الفتائل . ودُعى مع الأمير العديد من الشخصيات المدنية البارزة، وقد أقيم بعد العشاء حفلٌ غنائي غنى فيه أحد المغنين مع عزف شخصٍ آخر على العود وآخر يضرب على الطار أبو شناشن[١٢١].

كما تحدث عزيز عن نوعٍ آخر من مجالس الرجال فذكر بعد عودته إلى المدينة النبوية وعمله ككاتب ضبط في القسم العدلي. فوصف مجلس الشيخ يوسف بصراوي[١٢٢]

---

[١٢٠] – المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ٧٥ ، ١٠٨ – ١٠٩ .

[١٢١] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٠٢ – ١٠٣ .

[١٢٢] – لم نجد له ترجمة إلا فيما ذكره عزيز ضياء. بأنه من أعيان المدينة النبوية، درس في أحدى جامعات اسطنبول، شغل منصب رئيس القسم العدلي بالمدينة النبوية. المرجع نفسه والجزء، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ ، ٣١٣ .

الذي يجتمع عنده بعد غروب كل يوم أعيان أهل المدينة النبوية إلى ما بعد صلاة العشاء، وتدور الأحاديث بينهم عن مختلف أمور الحياة مع تعليقهم على ما يسمعونه من الاخبار التي تصلهم من العائدين من مكة المشرفة وجدة. وتحدث عن مجاملات تقع في مثل تلك المجالس ومنها: أن من يعود إلى المجلس بعد قضاء الحاجة وعندما يستقر في مجلسه ترتفع الأيدي إلى الجباه مع انحناء الرأس وترديد كلمة "شوفيتم" فيرد عليهم بقوله "عوفيتم". وأشار إلى أن كل ضيفٍ يأخذ مجلسه حسب سنه فالشيوخ لهم صدر المجلس ولا يجلس إلى جانبهم إلا من كان في سنهم حتى لو لم يكن في الصدر إلا شيخٌ واحد. وإذا بدأ الشيخ الحديث على الجميع الانصات، وإذا قاطعه أحدٌ ترى العيون مبحلقة والحواجب مقطبة ، فيضطر إلى التزام الصمت إلى أن يطلب منه الشيخ سماع ما يريد قوله. ومما لاحظه في مثل هذه المجالس أن من يلبس العمامة المدنية يلتزم بعدم خلعها إلى أن تنتهي السهرة . ومنها أيضاً التزام الأبناء في سن المراهقة مجلسهم بالقرب من باب الغرفة مع الحرص على الصمت المطلق وانتظار ما يأمر به الكبار من كوبٍ من الماء أو التنبيه لإحضار الشاهي المعطر بالدوش أو النعناع أو النوامي وأحياناً الورد. وهناك بعض الشيوخ من يستخدم النشوق فيقدمه إلى من يليه ثم تعاد له العلبة والتي يصاحب إعادتها امتداح جمالها لأنها مفضضة. وذكر أن الشيش لا تظهر في مثل هذه المجالس وإنما تظهر فقط في مآدب الغذاء أو العشاء الموسعة ومادة الشيشة هي الحمي –التنباك– المستورد[١٢٣].

أما عامة الناس فقد كانوا يجتمعون ليليًا في أحد القهاوي في سوق المناخة لسماع القصص الشعبية، حيث يجلس لقراءتها شخصٌ ذو صوتٍ جهوري يسمعه الجميع، ولا تخلو مثل هذه القصص من إنفعال القارئ والمستمع عند انتصار البطل أو هزيمته والتي يرفضها المستمعون[١٢٤].

---

[١٢٣] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ، ٣٢٤ – ٣٢٥ ؛ وقد وردت هذه المعلومات أيضاً في مرشد : طيبة وذكريات الأحبة ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

[١٢٤] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .

ووصف عزيز ما يتناوله أهل المدينة النبوية في وجبة الإفطار والتي تتكون من: الشريك أبوسمسم الذي يؤكل في الصباح ويوجد في سوق باب السلام، فقد عادت إليه الحركة كما كان قبل السفربرلك. كما يوجد نوع آخر من الخبز وهو الصامولي، ويوضع على سفرة الفطور طبق الفول والجبنة الزقزق والزيتون. أما المطبق والهريسة لا تباع إلا في باب المصري؛ كما لا يخلو الفطور من أكواب الشاهي الكبيرة. وإذا تواجد الرطب الأحمر يكون أيضاً من ضمن وجبة الإفطا؛ وللرطب الأحمر مقاسات عدة الأول: طويل يبلغ طول الأصبع ويسمى الحلوة أو الشلبية، والصغير لا يتجاوز عقلة الأصبع ويسمى الحِلية. وتؤكل مع شرب الشاهي الغير محلى بالسكر المسمى "الطلخ" كنوع من المزاج . وأحياناً تصنع الحِيسة التي لا تؤكل إلا صباحاً أو مساءً، كما يوجد العسل الممزوج بالسمن وخبز القمح بعد تسخينه وأيضاً اللقيمات "لقمة القاضي"[١٢٥]. فهذه الأصناف هي ما كان يتناوله أهل المدينة النبوية كلاً على قدر رزقه .

أما الغذاء فقد كان متنوعًا كلاً حسب جنسيته من الرز البخاري إلى قطع الحساء بالعجين ، والملوخية والكباب، والعديد من الطبخات التركية، بالإضافة إلى الأرز وسلطة الخيار والخل مع الفلفل، كما تناولوا العديد من أطعمة الخضار المطبوخة والمعرق المطبوخ باللحم [١٢٦]

وتحدث ضياء عن ملابس الرجال في ذلك الوقت فقال: أن الرجل الكبير في السن يلبس الجبة السوداء ويضع عمامة على رأسه من قماش داكن، والأعيان من الرجال يلبسون العمامة المدنية ويكسوا أجسادهم ثوبٌ أنيقٌ محزوم من الخصر. أما في المنزل فيُكتفي بلبس ثوب أبيض ويضع على الرأس طاقية وتستورد من تركيا أو من بخارى[١٢٧] .

---

[١٢٥] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢١١ ، ٢٢١ – ٢٢٢ ، ٢٦١ ، ج ٢ ، ص ٧١ .

[١٢٦] – المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ١٤٩ – ١٥٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ؛ ج ١ ص ٣٣٩ .

[١٢٧] – المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٢ .

طريقة التعامل مع الصغار والسلوكيات الواجب أتباعها : -

عندما يكثر الرضيع من الصراخ يسكتونه بوضع قطعة شاشٍ صغيرةٍ مغموسةٍ في الحليب في فمه، ويكون طرفها الآخر في يد من يتولى هذه المهمة لسحبها عند الإحساس أن الرضيع يريد أبتلاعها. وإذا أرادوا أن يخلد الرضيع للنوم تمد الأم أو من تقوم بهذه المهمة رجليها على الأرض وتوضع وسادة عليها يستلقي عليها الصغير ويؤرجح يميناً ويساراً مع ترديد أغنية ترافق ذلك وهي: "ياالله يرقد ياالله ينام على مخدة ريش نعام" وسرعان يا يستسلم الرضيع للنوم . كما توكل مهمة مراقبة الصغير للأكبر سناً من الأخوة. ومن الآداب المرعية للأطفال الأكبر سناً؛ عندما يجلسون على مائدة الطعام ينتظرون حتى يضع أحد الجالسين الكبار نصيبهم من ألوان الطعام. بينما يدرب الأطفال على عدم الجلوس مع الكبار، وإذا جلسوا يلتزمون الصمت إلا إذا وجه لهم الحديث . و يكون جلوسهم بالقرب من الباب لأن صدر المجلس مخصصٌ للكبار والضيوف[١٢٨].

الجواري والعبيد بالمدينة النبوية:

خصص لبيع الرقيق دكة عُرفت في ذلك الوقت بدكة العبيد والجواري ، وتقع بجوار سوق الحراج عند باب المصري ، فيباعوا على أهل المدينة النبوية وغيرهم ، وهؤلاء ممن سبق لهم العمل في المنازل والمتاجر، أما الرقيق الجديد فله موقعٌ آخر في الحرة الشرقية. من هؤلاء الرقيق من يعتق ومنهم من يبقى على حاله ، فميسوري الحال من أهل المدينة النبوية لا يخلو دار أحدهم منهم ؛ فمنهم من خُصص لرعاية الصغار أو خدمة المنزل أو الطبخ وغير ذلك من الأعمال[١٢٩].

---

[١٢٨] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٥ – ١٦ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٢٧١ ؛ ج ٢ ، ص ١٥٥ .

[١٢٩] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ١٥ – ١٦ . وهذه العادة ذكرها قبل ذلك إبراهيم رفعت باشا . رفعت : مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٤٤٢ ؛ عيسى ، عبد الرزاق عبد الرزاق : دراسات في تاريخ المدينة المنورة ، القاهرة ، دار القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٩ م . ص ١٨١ – ١٨٢ .

ومن عادة حجاج القازاق شراء الجواري والعبيد وإعتاقهم ، فقد ذكر عزيز أن جده الشيخ أحمد صفا أفندي شيخ حجاج القازاق والتركمان يقوم باستئجار المنازل لهم طيلة أيام وجودهم بالمدينة النبوية . كما يوسط شخصاً يسمى عثمان أفندي لشراء الجواري والعبيد من الدكة المخصصة لبيعهم ، ويتقاضى على ذلك عمولة الشراء للعبد عشرة مسكوفي –عملة روسية– والجارية سبعة مسكوفي، وبعدها يكتب جده أحمد صفا ورقة العتق[١٣٠]

بعض الخرافات التي كانت سائدة لدى أهل المدينة النبوية وذكرها عزيز ضياء:

من الخرافات المتداولة : وجود الساكن – الثعبان الضخم الذي يسكن البيوت القديمة في إحدى جدرانها سنين طويلة– وذكر عزيز أنه يوجد في منزلهم في زقاق القُفل ساكن يعيش في الحنية منذ زمن بعيد، ونبه بعدم التعرض له أو أذيته وتركه وشأنه، وهذا الساكن لا يؤذي طالما لم يقترب منه أحد أو يضربه، ويشتد خوف أهل المنزل منه ويتجنبون الاقتراب منه، مع قراءة سورة الفلق والبسملة. أما طريقة إخراجه والتخلص منه؛ فقد وجد بالمدينة النبوية شخصٌ متخصصٌ ومشهور لديهم يسمى" الزاكور" وهو من الصالحين ويخرجه بدون أجر يتقاضاه. كما كان هناك قبله رجلٌ مغربي تخصص أيضاً في الإمساك بمثل هذه الثعابين، ولكنه في إحدى المرات استدعاه شخصٌ للإمساك بثعبانٍ قتل له ثورين من ثيران السواني فلدغه فمات فى حينه. أما طريقة إخراجه كما وصفها عزيز فتتلخص: بحضور الزاكور وهو يحمل كيساً ليضع فيه الثعبان بعد إمساكه ثم يبدأ بتلاوة بعض الأدعية وبعض سور القرآن الكريم؛ ويقوم في أثناء ذلك بوضع بعض الأعشاب على جمرٍ متقد فيتصاعد منه الدخان وتنتشر رائحته حتى تعم الزقاق بأكمله؛ فهذا الدخان يجبر الثعبان على الخروج من مكمنه حتى لا يختنق،

---

[١٣٠] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢١٨ ، ٢٢٦ – ٢٢٧ .

وعندها يمكن الإمساك به. ويتناقل الناس عن مصير الثعبانين بعد أن يمسكهم الزاكور؟ فمنهم من يقول يحبسهم في منزله ومنهم من يقول يذبحهم ويأكلهم[١٣١] .

إن وجود الثعابين في المنازل القديمة وخاصةً المهجورة منها أمرٌ طبيعي، ولكن ما كان يقال عن وجود مثل هذه الثعابين من أقاويل مثل أنها من الجن والعفاريت، وأن من يخرج الثعابين يحتفظ بها في منزله ويأكلها، فهذه خرافات.

ومن جملة الخرافات التي أطلقتها دادة منكشة أن هذا الساكن له سلالة في المنزل وتوجد في المجالس العلوية وفي المؤخرات. وأن هناك أشباح لمشايخ يلبسون ثياباً بيضاء وخضراء ولهم لحى بيضاء طويلة تصل إلى السُرة ، وأنهم لا يكادون يظهرون حتى يختفون ثانيةً. وأنها رأت رجلاً عجوزاً مشى أمامها وأدخلها الحنية وأوقفها على حجر في الأرض وقال لها: "تحت هذا الحجر كنز ولكن لا يفتح إلا على دم". وعندما حدثت أم عزيز جارتها عما قالته الدادة أيدت قولها؛ وأنها هي أيضاً رأت الرجل العجوز في منزلها الذي يقدر عمر بنيانه بـ ١٥٠ سنة. وقال لها الرجل العجوز أن الدم المطلوب ليس دم حيوان مثل الخروف أو الثور أو البقرة، ولكن لا بد أن يكون دم إنسان جارية أو عبد أسود؛ وأنها قامت بشراء جارية وعبد لأجل إتمام ما نصح به الرجل العجوز؛ وأمرت العبد بقتل الجارية ولكنه خاف وهرب، ولما علم زوج الجارة بذلك أشترى منها الجارية والعبد وباعهما على حجاج القازاق الذين يقدمون للحج ؛ كما حذر زوج الجارة بأنها لو عادت لمثل هذا العمل فسوف يطلقها[١٣٢].

ومما شاع أيضاً أن من يُصرع ويسقط على الأرض، يقال عنه: "حقون رأسهم مسكوهم" ، ويسمون ذلك بالقرينة – الصرع وهو مرض معروف –[١٣٣] .

---

[١٣١] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ١٩١ ، ١٩٣ –١٩٥ ، ١٩٧ – ١٩٨ ، ٢٠١ .

[١٣٢] – المرجع نفسه والجزء ، ص ٢١٨ ، ٢٢٤ .

[١٣٣] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٩٦ – ١٩٧ ، ٢٦٣ .

ومن الخرافات أيضاً ما يقال عن وجود أرواح من ماتوا، وأن أرواح من توفوا تبقى حائمة حول المكان، مما يؤدي إلى الكآبة والخوف، بل يعتقدون بوجود الجن والعفاريت. ووفق هذا المفهوم السائد وقتئذ شاع وجود ما يُعرف بالصُلاح؛ وهم من يظهرون على هيئة مشايخ في البيوت المهجورة؛ وحكى عزيز عن حادثة وقعت لأحد جيرانهم في زقاق القُفل تتلخص: بأنهم عادوا بعد غيبة في الهند، ودخلوا منزلهم ليلاً حاملين مشعلاً للإضاءة، وعندما بدءوا بفتح أبواب القاعة والديوان أنطفأ المشعل فجأة، فحاولوا إشعاله مرة أُخرى فسمعوا صوت نفخة كأن مخلوقاً نفخ في الشعلة، وبعدها أحسوا بحركة مخلوقات تجري في الديوان، بعدها رأت إحدى النساء على ضوء الجلاء رجالاً في ثياب بيضاء وعلى رؤوسهم عمائم كبيرة بيضاء، يخرجون من باب القاعة ويدورون في دكة الديوان ويتحركون بحركات الذكر؛ وقد شككت والدة عزيز في رواية الجيران بأن رؤية الأشخاص وهم وأن ما أحسوا بحركتهم إنما كان فرار الفئران أو القطط لأن البيت مهجورٌ منذ زمن، ولما أحست هذه الحيوانات بالحركة والنور خافت وهربت[١٣٤]. وهذا هو المنطق في تحليل ما وقع، فمن سرد عزيز لخرافة الصُلاح نجد أنها لا تلقى صدى عند البعض، وأن من يصدقها كانوا من بسطاء الناس. فهذا مجمل ما كان سائداً من خرافات في تلك الفترة وأوردها عزيز في سيرته.

طريقة تعليم الصغار في الكتاتيب وسلوكيات الصغار داخلها : -

هيئة التدريس في الكتاتيب لها نظامها الخاص، وتكون على حسب حجم الكُتاب وعدد العاملين به، وخاصة التي تتبع كتاتيب الأوقاف، فمن العاملين بها: المؤدب، ومهمته تعليم الأطفال القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم. ويليه في المكانة خليفة المؤدب، فهو يقوم مقامه فترة غيابه. ثم العريف، الذي يتولى أمر الصبية المتخلفين عن أقرانهم. ثم المكتَب، ومهمته تعليم الصبية فنون الكتابة وجودة الخط[١٣٥] .

---

[١٣٤] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢٨٥ – ٢٨٦ ، ٢٩٢ – ٢٩٤ .

[١٣٥] – بيومي ، محمد علي فهيم : الحركة العلمية في المدينة المنورة أبان القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، القاهرة ، دار القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٧ م . ص ٢٦٨ – ٢٧١ .

كانت الكتاتيب في عهد الدولة العثمانية تعلم الصبية باللغة العربية والتركية، وفي عهد الدولة الهاشمية اكتفوا بالعربيةِ فقط، وكان عريف أو شيخ الكُتاب يستخدم الجريد الأخضر والخيزرانه المبللة بالماء لضرب الصبية الذين لم يحفظوا الآيات المكتوبة لهم على لوحهم في اليوم التالي، أو الذين تصدر منهم بعض التصرفات الغير لائقة؛ حيث ترفع أرجلهم على الفلقة ويضربون بها. وعندما يُدخل الصبي لأول مرة يقول ولي أمره لعريف الكتاب " لحمه لك ياسيدي وعظامه لنا ". ويستلم الصبي من عريف الكُتاب لوح لكتابة الآيات القرآنية، والمضير – ما يستخدم لدهن اللوح بعد مسحه لمعاودة الكتابة عليه – والدواة وقلم البوص[١٣٦] .

وبمجرد قبول العريف للصبي الجديد، يقوم مساعد العريف بتسجيل اسمه كاملاً وعمره وعنوانه في سجل لديه، ثم يخلع الصبي حذائه ويضعه في رف داخل الكُتاب ويجلس بالقرب ممن هو في عمره . ويحضر كل صبي معه وجبته التي يتناولها في الكُتاب، وتكون القراءة جماعية من قِبل الصبية. ويتصدر العريف بالجلوس على مصطبة – دكة– مرتفعة قليلاً أمام الصبية الجالسين على الأرض أمامه، وبالقرب منه عددٌ من الخيزرانات ذوات الأطوال المختلفة لتطال الجميع، وخلفه تعلق الفلقة على الجدار. ومن الآداب الملزمة لهؤلاء الصبية الوقوف جميعاً عند دخول العريف[١٣٧] .

وفي هذا الكُتاب يتعلم الصبية مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم . ويبقى الصبية في الكتاب يومياً من الصباح إلى العصر طوال أيام الأسبوع فيما عدا يوم الجمعة فهو يوم عطلة. وروى عزيز بعض سلوكيات الصبية في الكتاب ومنها: عندما يرفع شيخ الكُتاب صوته بالقراءة ، يرفع بعض الصبية أيضاً أصواتهم

---

[١٣٦] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٥٥ ، ٥٩ – ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٦ .

[١٣٧] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٦٠ – ٦١ .

متظاهرين بالقراءة وفي حقيقة الأمر يرددون بعض الأغاني الشائعة في الحارات. ومنها أيضاً: احتيال البعض للخروج من الكُتاب إلى الميضأة ودورة المياه، ولكي يتمكنوا من الخروج يدعوا أنهم محصورون ويريدون الذهاب إلى دورة المياه؛ وذلك بعمل حركة توحي بذلك وهي: أن يقف الصبي وهو رافعاً يده اليمنى وقابضاً أصابعه جميعاً ماعدا الخنصر، ويضع يده اليسرى أسفل بطنه مع تصنع التململ علامة وجوب ذهابه إلى دورة المياه؛ والغرض من هذه الحيلة التفسح عند باب الحرم حيث يوجد بعض الإفريقيات يشترون منهن بما يحملونه من مصروف يومي يُزودون به من أهاليهم فيشترون البليلة – الحمص المغلي– والفول السوداني واللبن الرائب الموضوع في قرع مجفف تسبح داخله قطع الذبدة، توضع في شريحة خبزِ صغيرة، فيلتهمها الصبية هناك قبل العودة إلى الكتاب. ولم يكن الخروج لهذا الغرض فقط، بل كان للقيام بأعمال تخريبية في الميضأة وهي: تكسير أباريق الوضوء المصنوعة من الفخار والتي كانت تُملأ بمغارف كبيرة من حوضِ طويل ممتد على الجدار، والسبب لفعلهم هذا إدعاء عدم وجود أباريق للوضوء عند آذان الظهر، وكان العريف يعلم أنهم هم الفاعلون ولكنه يجهل الفاعل الحقيقي، وعندما يطفح الكيل عليه لكثرة ما يشتريه كل أسبوع من أباريق كان عليه أن يعاقب الجميع بالفلقة بدون استثناء؛ وبالرغم من ذلك استمر تكسير الأباريق، وعندما استبدلت بالصفيح لم تسلم هي أيضاً من تكسير أخشامها التي يصب منها الماء. بل تطور الأمر إلى إفراغ الماء من الحنفية التي تُملأ منها الأباريق؛ ويذكر أن تفريغها يكون بالتعاون بين ثلاثة أو أربعة من الصبية. ويبدو أن الصبية طوروا من سلوكياتهم المشاكسة، فقد كانوا يشترون مسحوقاً من العطار ينفخونه في الهواء عند أنهماك الصبية في القراءة، وبمجرد ما ينتشر هذا المسحوق تتحول القاعة إلى موجةِ من العطاس لا يسلم منها العريف نفسه، وأيضاً كان شيخ الكُتاب على علم بهذا المسحوق فيأمر بتفتيش الصبية فإذا وجد أثر المسحوق في جيب أحدهم يكون عقابه فلقة مع استمرار نوبة العطاس مع الضحك المتواصل. ولم يجد شيخ الكُتاب عقاباً يردع إلا مصادرة أي مبلغ يجده في جيوبهم،

ولكنها مصادرة مؤقتة لحين موعد الانصراف فيرد لهم ما أُخذ منهم مع مسك للأذن إلى أن تحمَر [١٣٨]. فهذه بعض من شقاوات الصبية التي ذكرها عزيز وكان يقوم بفعلها مع غيره من الصبية في ذلك الوقت لا لشيء وإنما مجرد شقاوة .

ويحكي عزيز أحوال الصبية في الكُتاب وكيف أنهم يرتجفون خوفًا من شيخ الكُتاب العريف محمد بن سالم ، وكيف يدير بصره في أنحاء القاعة لينهمك الجميع كلاً على لوحه ويقرأ مع الانحناء إلى الأمام والخلف علامة الانهماك في القراءة؛ بينما الحقيقة أن البعض يتحدث مع زميله عن أخبار القشاع بين أطفال الساحة وأطفال المناخة ومن غلب وكم عدد الذين سال الدم من رأسهم، وعن المشكل الذي يحمل عصا غليظة تسمى النبوت –المزفر– وكم عدد من ضربهم وأسقطهم أرضاً، ومن الشخص الذي يحمل سكيناً في حزامه ليواجه خصمه وغيرها من الأحاديث[١٣٩].

أما عن أوضاع المسجد النبوي فقد درج أغواته على حفظ النظام والنظافة به ، وتأديب من تسول له نفسه خرق القوانين، فمن ذلك ماحكاه عزيز عن نفسه بأنه في أحد الأيام عندما كان الجميع في الحرم النبوي يتأهب للصلاة وينتهز الصبية وقت الصلاة للعب في الحصوة وحول الحديقة الصغيرة بالقرب من البئر[١٤٠] ، إذ يملأ الزمزمة الدوارق ليضعوها في فجوات بين الأعمدة ليشرب منها المصلين؛ فيقول: أنه أنتهز فرصة سجود المصلين فأسرع بوضع خمسة دوارق خلف كل ساجد دورقاً من تلك الدوارق، شرع في الركض نحو الحصوة وبقية الصبية في خوفٍ من فعله، وذكر انه لم يشعر إلا يدٌ تقبض على عنقه وتجره إلى اتجاه دكة الأغوات. وبعد انتهاء الصلاة أجتمع الأغوات وجلسوا فيما يشبه الدائرة وفي وسطهم كبير الأغوات يتداولون

---

[١٣٨] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٦٣ – ٦٤ ، ٧٨ ، ٩٠ – ٩١ .

[١٣٩] – المرجع نفسه والجزء ، ص ٧٩ .

[١٤٠] – لقد أزيلت الحديقة وطمر البئر في توسعة المسجد النبوي عام (١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م) . حافظ :فصول من تاريخ المدينة ، ص ٩٥ .

العقوبة المناسبة له. وانتهى القرار إلى إحضار الفلقة وضربه على رجليه بخيزرانه رفيعة متوسطة الطول وهو يبكي ويقول: " أتوب .. أتوب " وبعد أن ضُرب خمس ضربات أطلق وقال له الأغا بلغة تركية مكسرة " توبة يوك خطأ كبير لازم ضرب .. ومرة ثانية ضرب وحبس كمان "وكان الصبية المشاهدون لما جرى يرددون .. "يستاهل" [١٤١]. وذلك لأنه تجرأ وخالف القواعد المرعية في آداب المسجد النبوي وعدم العبث بمحتوياته من قبل الصبية الصغار[١٤٢].

أما عندما دخل المدرسة الراقية – الرشدية [١٤٣] – سابقاً لإكمال تعليمه، والذي كان نظامها الدراسي يختلف عن الكُتاب، وبما أن والدة عزيز كانت المسئولة عنه، فقد أخذته بنفسها إلى المدرسة التي كان بابها مُغلقاً لمنع خروج الطلاب وقت الفسحة ؛ كما هي عادة المدارس في الوقت الحاضر، كما لم يكن هناك حرج من دخول والدة الطالب إلى داخل المدرسة إذ نجد أن والدة عزيز استأذنت من البواب الذي يجلس خارج المدرسة على كرسي بأنها تريد مقابلة مدير التحضيرية السيد ماجد عشقي، وسرعان ما قابلته في مكتبه داخل المدرسة وكان يجلس خلف مكتب صغير لابساً العمامة المدينية، وخضع عزيز لامتحان القراءة، وسُجلت معلوماته في سجل المدرسة بعد ذلك، فإجراءات القبول هكذا كانت في ذلك الوقت[١٤٤].

---

[١٤١] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

[١٤٢] – مرشد : طيبة وذكريات الأحبة ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

[١٤٣] – أما تقسيمات المدرسة الراقية فقد كانت عبارة عن أربع مدارس في مبنى واحد حملت أسماء أبناء الشريف حسين الأربع وهي: العلوية نسبة إلى علي، والفيصلية نسبة إلى فيصل، والعبدلية نسبة إلى عبد الله، والزيديهة نسبة إلى زيد. ثم أسست المدرسة الراقية عام (١٣٤٠هـ /١٩٢١م) طيبة وذكريات الأحبة، ج ٢، ص ٧٢ ؛ الخياري: صور من الحياة الاجتماعية، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

[١٤٤] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٣٤ – ١٣٧ .

النظام الدراسي في المدرسة الراقية – مرحلة التحضير – وسلوكيات الطلاب:

يبدأ بوجود بواب خارج المدرسة مهمته منع الطلاب من الخروج وقت الدراسة، ومدير ينظم أمورها من تسجيل الطلاب وتوزيع المواد الدراسية على المعلمين، ومن موظفي المدرسة أيضاً مراقب ينفذ ما يأمر به المدير، بل يتوفر في المدرسة ما يحتاجه الطلاب من مأكولات تباع لهم. وتحتوي المدرسة على فصول دراسية، كل فصل يحتوي على منضدة للمعلم وطاولات بها أدراج وكراسي لجلوس الطلاب، وعند دخول الطالب الجديد للفصل لا بد له من السلام على المعلم وتقبيل يده . ولكل فصل عريف يضبط نظامه، فهو الذي يأمر الطلاب بالوقوف عند دخول المعلم بنبرة عسكرية واضعاً يده اليمنى على جبهته يتبعه في ذلك الجميع ولا يجلسون إلا إذا سمح المعلم لهم بقوله "جلوس". ويفصل بين الحصة التعليمية والأخرى صفارة. ومدة الدراسة في التحضيرية سنتان ينتقل بعدها الطالب إلى مرحلة التأهيل ومدتها سنة، وبعدها مرحلة الراقية ومدتها مابين ثلاث إلى أربع سنوات. ويمكن للطالب أن يحضر معه وجبته الغذائية لتناولها في المدرسة، ويمكن أيضاً شراء وجبتهم من المراقب وهذه الوجبة لا تتعدى خبز الشريك والجبنة والشاهي، ويتناول جميع الطلاب وجبتهم في ساحة المدرسة. وعند اصطفاف الطلاب في ساحة المدرسة لتلقي تعليمات من مدير المدرسة ينتهي الأمر بقول المراقب للطلاب " احترام " ومعناه تأدية تحية عسكرية كأنهم جنود [١٤٥] .

بعض شقاوات الطلبة في المدرسة :

من أهم ما حكاه عزيز عن هذه الشقاوات التي كانت باتفاق الجميع بحيث لا يوجد واشي بينهم يخبر بالفاعل الحقيقي فمن ذلك : إحضار أحد الطلاب لبعض الخنافس في علبة ومعها نموذج لشكل عقرب مصنوع من الزفت بشكل متقن لا يختلف عن العقرب الحقيقي؛ فيدخل الخنفساء في تجويف أسفل نموذج العقرب بحيث

[١٤٥] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٣٦ – ١٤١ ، ١٥٧ .

عندما تمشي الخنفساء لا يشك الرائي أنها عقرب، وعندما يستسلم المعلم للنوم في حصة القرآن الكريم؛ يتسلل الطالب ويضعها على صدر المعلم مع متابعة جميع الطلاب لما يفعله زميلهم ؛ ثم يعود إلى مقعده، ويصرخ عندها أحد الطلاب عقرب ويتتابع صياح الباقين، فيفزع المعلم وينادي على المراقب ويخرج من الفصل، فيدخل عند ذلك المراقب لقتله ، عندها تُكشف الخدعة فيضج الطلاب بالضحك، ويحمل المراقب نموذج العقرب ويتوجه به إلى مدير التحضيري السيد ماجد عشقي ومدير الراقية السيد حسين طه. وهنا يأمر جميع الطلاب بالحضور أمام المديرين؛ وسألوا من المسئول؟ وأنكر الجميع علمهم بالفاعل، عندها أدرك المديران أتفاق الجميع ، وبدأوا بالحديث بالتركية لتقرير العقاب. وقرر العقاب بأن الجميع يُضرب بالفلقة عشرين جلدة على القدمين بدون بكاء منهم أو صراخ لأن البكاء والصراخ للأطفال [١٤٦] .

ومنها أيضاً إحضار صرصار ووضعه على ظهر أحد الطلاب فما أن يراه البقية حتى يتسابقون لإزالته عن ظهر ذلك الطالب، فيتعرض عندها للخفق والصفع على الظهر مع الضحك من الموقف إلى أن يسقط الصرصار على الأرض ويدهس بالأقدام ويختفي؛ عندها يشتكي الطالب للمراقب الذي لا يخرج بنتيجة لإنكار الفاعل واختفاء الدليل[١٤٧] .

الألعاب التي كان الصبية يمارسونها :

تعددت الألعاب التي مارسها صبية المدينة النبوية في تلك الفترة مابين البِربِر والكبت والتزقير والكبوش التي كان بعض أهل المدينة النبوية يشبهها بالقمار، والقشاع

---

[١٤٦] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٤١ – ١٤٥ .

[١٤٧] – المرجع نفسه والجزء ، ص ١٥٤ .

وقد انتقدها عزيز ومؤرخي المدينة النبوية لخطرها على اللاعبين [١٤٨]. وقد تحدث مؤرخي المدينة النبوية عن عددٍ كبير من هذه الألعاب التي كان يمارسها أهل المدينة النبوية ومنها ما ذكرها عزيز [١٤٩] .

آداب وسلوكيات يلتزم بها الأطفال :

من الآداب التي حرص أهل المدينة النبوية على تعليمها لأبنائهم قول الصغير لمن يكبره "سيدي" علامة الاحترام والتوقير، ومنها تقبيل يد الكبير باطنًا وظاهرًا وربما ترفع إلى الجبهة أيضاً؛ سواء كان رجلاً أو امرأة، وعدم رفع الصوت عند الكلام، ويعاقب الصغير الذي يضع أصبعه في أنفه أو يخلل أسنانه، ولا بد له عند الجلوس من الجلوس على هيئة القرفصاء، ومنها الاعتناء بقص الأظفار لأنه من المعيب أن تكون الأظفار طويلةً ومتسخة، ومن الآداب أيضاً مغادرة الصغير لمجلس الضيوف عند ازدحامه، ومنها مراعاة عدم الكلام أمام الصغير في أمورا يجب سماعها وغيرها كثير. ومن جميل العادات التي تنم عن مدى احترام المخاطب الأكبر سناً بصيغة الجمع فمثلاً : يقال أنتم بدل أنت وأنتِ [١٥٠].

---

[١٤٨] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، ١٦٢ ؛ العياشي ، إبراهيم بن علي : المدينة بين الماضي والحاضر ، المدينة المنورة ، مكتبة الثقافة ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م . ص ٥٢٤ – ٥٢٥ .

[١٤٩] – يراجع الخياري : الحياة الاجتماعية ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ؛ مرشد : طيبة وذكريات الأحبة، ج ١ ، ١٩٧ .

[١٥٠] – ضياء : حياتي ، ج ٢ ، ص ١٢ ، ١٦ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٠ ؛ ج ١ ، ص ٧٧ .

الأمراض التي وجدت بالمدينة النبوية :

عانى أهل المدينة النبوية من أمراضٍ عدة منها التيفوس والملاريا التي كانت تعالج بالكينا إما على هيئتها العشبية أو على هيئة حبوب، والعصرة –الديزانتريا– وتعالج بالخولنجان ومنقوع العفص أو العُصفر –نبات طبي– والسعال واليرقان الصفراء أو الصفاري وتعالج بالقراءة على المرض، ومنها التراخوما وهو مرض يصيب العين، ومنها التهاب الرئة الذي يسمى الجنبة. وكان من يتولى علاج بعض هذه الأمراض العطارين بما يعرفونه عن خواص الأعشاب التي يبيعونها. وتخصص البدو في الكي، أما المزين – الحلاق – فهو يداوي جميع الجروح بوضع البن والملح عليها ويستخدم الزُافة والشبة أيضاً – مسحوق نباتي يأخذ من العطارين – ويستخدم بعضهم صبغة اليود. وبجانب هؤلاء توجد مستشفى تسمى مستشفى الغرباء بها طبيب أو اثنين من سوريا وعددٌ من المضمدين والممرضين الذين دربوا على أيدي الطبيبين ، وبالمستشفى صيدلية تصرف الأدوية مجاناً من الصيدلية التي يديرها مساعد صيدلي[١٥١] . وقد أكد قبل ذلك دولتشين على وجود المستشفى التي بها طبيب والصيدلية التي يقوم بصرف الدواء فيها صيدلي واحد[١٥٢].

مؤذني المسجد النبوي :

ومما جاء في سيرة عزيز ضياء حديثه عن مؤذني المسجد النبوي وذكر أن له مجموعة مؤذنين يرفعون الآذان من مآذنه المختلفة في كل وقتٍ من أوقات الصلوات الخمسة، ولهم رئيس مكلف برفع الآذان من المئذنة الرئيسية وهي المميزة عن غيرها من المآذن؛ وهؤلاء المؤذنون عُرفوا بجمال الصوت وقوته، ومعيار القوة سماعه من أبيار علي وخاصة في آذان العشاء والفجر، ولا يعين المؤذن إلا إذا حاز على حسن السيرة والسلوك

---

[١٥١] – ضياء : حياتي ، ج ١ ، ص ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٨٢ ، ٣٢٢ – ٣٢٤ ؛ ج ٢ ص ٩٧ ؛ انظر بإفاضة عن تعدد الأمراض وطريقة علاجها في زيدان : الأعمال الكاملة ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ – ٢١١ .

[١٥٢] – ريزفان : الحج قبل مئة سنة ، ص ١٧٠ .

ومن مكانة عائلية حسنة السمعة ويتميز بجمال الصوت وقوته؛ ثم يُصدر أمر بتعينه من العاصمة العثمانية بعد سلسلة من الإجراءات من قِبل شيخ الحرم النبوي وقاضي المحكمة والقراء والأئمة بأنه حافظٌ للقرآن الكريم وغيرها من الإجراءات . وكان أهل المدينة النبوية يميزون أصوات المؤذنين، وممن ذكرهم عزيز من المؤذنين النجدي ووصف صوته بأنه داوودي، ومنهم عبد الستار بخاري، وحسين بخاري الذي كان أخاً لزميل لعزيز يسمى يحيى، وكان هو أسرته من الذين بقوا في المدينة النبوية وقت ترحيل الأهالي عنها ليقوم بالآذان مع غيره من المؤذنين خوفاً من انقطاعه، وكان فخري باشا يصرف لهم مؤنة مرتين في الأسبوع، وكان المؤذن حسين بخاري إلى جانب عمله بالآذان يعمل في وكالة لتقييد الحسابات، بالإضافة إلى قيامه عند اقتراب وقت ذهاب الركب المدني إلى مكة المشرفة للحج أو العمرة ينشد الأناشيد الدينية التي تُرغب الأهالي للذهاب إليها؛ فيصدح بصوته الجميل بتلك الأناشيد داخل المدينة النبوية، ويسمى من يقوم بذلك " المزهَد " عند أهل المدينة النبوية، كما كان يرافق الركب المديني أثناء سيره إلى مكة المشرفة ليقوم بالإنشاد أيضاً وذلك لجمال صوته – ويُعرف هذا اللون من الأناشيد الدينية أثناء سير الركب " بالحداء " [١٥٣] .

[١٥٣] – ضياء: حياتي ، ج ١ ، ٢١٣ – ٢١٤ ؛ ج ٢ ، ص ٥٥ ، ١٢١ . وانظر للمزيد مرشد: طيبة وذكريات الأحبة ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ، ٢١٣ – ٢١٦ ؛ ج ٣ ، ص ٦٨ – ٧٢ .

الخاتمـــــة :

مما سبق عرضه في سيرة عزيز ضياء لاستخلاص أحوال المدينة النبوية في الفترة التي عاشها بها نخرج بعددٍ من النتائج منها:

اعتمد المؤرخون من المصادر على السير الذاتية، وهي بلا شك ذات أهمية حيث تسد ثغرات غابت في مدوناتهم التاريخية، ومن هذه السير سيرة عزيز ضياء التي كتبها على خلفية تاريخية زماناً ومكاناً، فسيرته شكلت جزءً من تاريخ المدينة النبوية في فترة سرده لها .

وجد عند حديث عزيز ضياء عن الأحداث التاريخية السياسية للمدينة النبوية؛ حديث شاهد عيانٍ لها، أيدت كتب التاريخ ما اخبر به مثل: أحداث السفربرلك، وحصار المدينة النبوية الأول الذي ألتقط معلوماته من والدته وممن التقى بهم بعد ذلك بعد عودته. أما الحصار الثاني فقد وقف عليه بنفسه وسرد ما عاناه أهل المدينة النبوية وهو منهم.

ذكرت كتب التاريخ حال أهالي المدينة النبوية وقت الحصار الأول من قِبل الأشراف؛ وتفجعهم على حالهم الذي وصل إلى حد قولهم: بأنهم أكلوا الأموات بل أولادهم أيضاً؛ فنقض عزيز هذه الأقوال وعلق عليها بأنها مبالغات لم تحدث، وإنما تناقلها الناس بالسماع. أما غيرها من الصعوبات فقد أكدها، وهذا يقودنا إلى أهمية السير التي يكون أصحابها شهود عيان عليها أو قريبي العهد بها، وعدم القطع بكل ما جاء في بعض كتب التاريخ التي ربما يضخم مؤلفوها الحدث.

صور عزيز ضياء الحالة الاجتماعية من خلاله وموقفه من المبادئ والأخلاق السائدة وتمسك الناس بها؛ مثل: آداب السلوك واحترام حرمة المسجد النبوي وعدم

العبث داخله من الصبية الصغار وجزاء من يفعل ذلك ودور أغوات المسجد النبوي وسلطتهم في معاقبة من يعتدي على حرمة المسجد النبوي.

كانت غاية عزيز ضياء من كتابة سيرته نقل ما مر به للأجيال القادمة كما هو واضح في مقدمة سيرته.

اعتمد عزيز ضياء في كتابة سيرته على البناء الفني والتشويق وإجادة السرد في واقع تاريخي محدد.

أبدع عزيز ضياء في تصوير المجتمع النسائي بحكم التصاقه بوالدته في تلك الفترة وحضوره تلك المجالس النسائية وأثبتها في سيرته، وهذه معلومات لا نراها في كثير من كتب التاريخ التي تؤرخ لفترة ما. كما أدلى بدلوه في سرد ما يحدث في مجالس الرجال في تلك الفترة، بل حتى ما كان يدور من أفكار ومشاغبات وألعاب الصبيان .

أوضح عزيز ضياء طريقة التعليم في الكتاتيب، وسرد أنواعًا من العبث الصبياني فيها وما يلحقهم من عقاب، وأيضاً ما كان يحدث داخل المدارس النظامية، سواء من النظام الداخلي وطريقة التعليم، ولم ينس أيضاً مشاغبات الطلبة وعقابهم.

وتطرق عزيز ضياء في سيرته لبعض الجوانب الاقتصادية ووفرة الأسواق المتخصصة ببيع ما يحتاجه أهل المدينة النبوية. وأشار إلى عمل الجميع بمن فيهم الأطفال لكسب عيشهم. كما أشار إلى دور البدو في مد أهل المدينة النبوية ببعض المؤن الغذائية.

ومن خلال سرد عزيز ضياء لسيرته تدفقت المعلومات عن التنوع البشري في المدينة النبوية بدون استعلاء جنسٍ على آخر بل كان الجميع يعيش في سلام. كما

أكد على وجود العبيد والجواري واعتماد أهل المدينة النبوية عليهم في الخدمة والعمل؛ وكان منهم من بقي على رقه وكثير منهم أعتق ولا يزال في خدمة من أعتقه كأنه فردٌ من العائلة.

إن ما ورد في سيرة عزيز ضياء من معلومات متنوعة يجدها المؤرخ في مكانٍ واحد، إذ لو أراد تتبعها من غير السيرة سيجد صعوبة في جمعها والتقاطها من عدة مصادر حتى يستطيع الخروج بهذا الكم من المعلومات التي وردت في سيرته.

إن عزيز ضياء أديبٌ؛ ولكنه في سيرته يعتبر مؤرخاً لأوضاع المدينة النبوية لكافة أحوالها، وقد أكد العديد من المؤرخين الذين تم الاستعانة بهم في البحث صدق ما ذكره عزيز في سيرته.

وعليه لا نجانب الصواب إن أخذنا بأهمية السير الذاتية واعتبارها مصدر من مصادر التاريخ بعد مقارنتها بالمصادر التاريخية الأخرى التي أرخت لتلك الفترة.

المصادر والمراجع

المخطوطات:

- المدني، جعفر بن الخطيب السيد حسين يحيى هاشم الحسيني(ت١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤ م) ١ – الاخبار الغربية في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة، مخطوط بجامعة المدينة المنورة.

المصـــــادر:

- الأنصاري ، عبد الرحمن (ت ١١٩٧ هـ / ١٧٨٣ م) .

٢ – تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق محمد العمروسي المطوي، تونس، المكتبة العتيقة ، ١٩٧٠ م .

- العصامي ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت ١١١١ هـ / ١٩٦٦ م)

٣ – سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي . المطبعة السلفية ، د . ت .

- العياشي ، أبو سالم عبد الله بن محمد (ت ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩ م) .

٤ – الرحلة العياشي ، الجزء الخاص بالمدينة المنورة ، تحقيق محمد أمجزون ، الكويت ، دار الأرقم للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

- ابن منقذ ، أسامة بن مرشد (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) .

٤ – أسامة مؤيد الدين أبو المظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) . طبعة على النسخة التي حررها د. فليب حتي ، بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، منشورات محمد علي بيضون ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

المراجـــع :

- بدر ، عبد الباسط .

١ – التاريخ الشامل للمدينة المنورة ، المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

- البرادعي ، الشريف أحمد بن محمد صالح الحسيني .

٢ – المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي ، ط ١ ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م . د . م .

- البلادي ، عاتق بن غيث .

٣ – معجم معالم الحجاز ، مكة المكرمة ، دار مكة ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

- بيومي، محمد علي فهيم .
٤ – الحركة العلمية في المدينة المنورة أبان القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، القاهرة ، دار القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٧ م .
- الجاسر، حمد .
٥ – رسائل في تاريخ المدينة ، الرياض ، دار اليمامة ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- حافظ ، علي .
٦ – فصول من تاريخ المدينة المنورة ، جدة ، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ .
- الخياري ، السيد أحمد ياسين الخياري المدني الحسيني .
٧ – صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة النبوية منذ بداية القرن الرابع عشر الهجري وحتى العقد الثامن منه. تقديم ومراجعة وتوجيه فضيلة الأستاذ عبيد الله محمد أمين كردي، قام بإعداد المخطططات وتجزئتها المهندس سمير أنورعدنان عشقي، جدة، مطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٩٥ م. مزادة ومنقحة.
٨ – تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ، تعليق وإيضاح وإضافة وتخريج عبيد الله محمد أمين كردي ، جدة ، دار العلم ، ط ٤ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
- رفعت ، إبراهيم رفعت باشا .
٩ – مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاه بمئات الصور الشمسية ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت .
- الزركلي ، خير الدين .
١٠ – الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، بيروت – لبنان ، دار العلم للملايين ، ط ٧ ، ١٩٨٦ م .
- زيدان ، محمد حسين .
١١ – الأعمال الكاملة – ذكريات العهود الثلاثة، جدة، الناشر عبد المقصود خوجة، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .
- ضياء ، عزيز.

١٢ – الأعمال الكاملة، كتاب الإثنينية ٢٦، الناشر عبد المقصود خوجة ، جدة، ط ١، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .

١٣ – حياتي مع الجوع والحب والحرب ، بيروت – لبنان ، الناشر التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ٢٠١٢ م .

- عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن .

١٤ – تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، القاهرة ، دار الكتب الجامعي ، ط ٨ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م .

- العياشي ، إبراهيم بن علي .

١٥ – المدينة بين الماضي والحاضر ، المدينة المنورة ، مكتبة الثقافة ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

- العثيمين ، د / عبد الله الصالح .

١٦ – تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، مكتبة العبيكان، ط ٢، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧م.

- عيسى ، عبد الرزاق عبد الرزاق .

١٧ – دراسات في تاريخ المدينة المنورة ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٩ م .

- فريد ، محمد فريد بك المحامي .

١٨ – تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت ، دار الجيل ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.

- مرشد، أحمد أمين صالح .

١٩ – طيبة وذكريات الأحبة ، مراجعة وتقديم عبيد الله محمد أمين كردي ، جدة ، الشركة السعودية للتوزيع ، ط ٣ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

المعربـــــــات :

- ريزفان ، يفيم .

١ – الحج قبل مئة سنة الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي ١٩٨٩ – ١٨٩٩ م الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلى مكو رواية وصفية بديعة للتأريخ والجغرافيا والسياسة والاجتماع والإدارة ، بيروت – لبنان ، دار التقريب بين المذاهب ، ط ٣ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .